أبعاد دليل المَثُلَات

إعـــــداد

د / عيسى بن عبد الله السّعدي

أستاذ العقيدة المشارك بجامعة الطّائف

ملخَّص البحث

البحث عبارة عن دراسة عقديّة ترمي إلى بيان المضامين والأبعاد العلميّة والإيمانيّة لدليل المَثُلَات ، وذلك من خلال جانبين رئيسين : ـــ

أحدهما : الجانب النّظري ؛ وفيه بيان مَعْنَى المَثُلَةَ لغة واصطلاحًا ، وشرح دلالتها على خروج المَثُلَةَ عن المعهود في عقوبة الخلق ، ومشابهة المَثُلة لأسبابها ، وشهرتها ، واطرادها ، ودلالتها على استئصال المعذّبين غالبًا ، وعلى صدق الرّسل وصحّة دينهم .

والثّاني : الجانب الواقعي ؛ وهو ما عني السّلف بتحديد المَثُلة من خلاله ؛ فكانوا يكتفون في حدّها بذكر أنواعها ، أو أهمّها ؛ وهي مثلة الغرق ، والرِّيح ، والصّيحة ، والائتفاك ، والخسف ، والمسخ .

وتستمدّ الدِّراسة أهميتها من أهميّة دليل المَثُلَات ذاته ؛ لقوّة دلالته وشمولها لأصول المطالب الدينية ، ولأثره في الثّبات على الإيمان والتقوى ، وبخاصّة في عصر استطال فيه الكفّار واستضعف المؤمنون .

المقدِّمـــة :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسّلام على من لا نبيّ بعده ، وبعد :

فإنَّ دليل المَثُلاَت من أعظم براهين الإيمان ، فقد ورد معناه في كثير من النّصوص الشرعيّة ؛ لقوّة دلالته ، وظهورها ، وسعتها ، وشمولها لأصول المطالب الدينية، ولكن كثيرًا من علماء العقيدة اكتفوا بالإشارة إليه ، أو ذكره ذكرًا مختصرًا لا يجاوز في الأعمّ الأغلب سرد بعض النّصوص ؛ لذا رأيت أَنَّ أخصّه بدراسة تبرز أبعاده ، وتشرح دلالاته ، وتوضّح أسبابه وآثاره ؛ لما لذلك من الأهمّيّة البالغة في الثّبات على الإيمان والتقوى ؛ وبخاصّة في عصر استطال فيه أئمة الكفر ماديًّا ومعنويًّا ، واستعلنت بعض مجتمعاته حتَّى بأعظم أسباب المَثُلاَت ؛ وتجاوز الخطب إلى اعتباره حقًّا مشروعًا ، يكفله الدّستور ، وتثبت به الحقوق ، ويمثّل أصحابه في البرلمان ، ويخطب ودّهم حتَّى الزعماء في حملات الانتخاب ، وحفلات التّنصيب !

خطّة البحث :

جاءت دراسة هذا الموضوع بعد المقدّمة في ثلاثة مطالب ، وخاتمة : ـــ

فالمطلب الأَوَّل : في معنى المَثُلاَت . وفيه بيان معنى المَثُلة لغة ، وأصل اشتقاقها ، وأقوال علماء الشّريعة في تحديدها شرعًا ، مع ذكر وجه كلّ قول ، وبيان أكثرها تحديدًا لحقيقة المَثُلة شرعًا .

المطلب الثَّاني : في دلالات مَعْنَى المَثُلاَت . وفيه بيان الأبعاد الَّتي ينبئ عنها مَعْنَى المَثُلة ؛ وهي الخروج عن المعهود ، ومشابهة المَثُلة لسببها ، وشهرة المَثُلة ، واطّرادها ، ودلالتها على صدق الرّسل ، واستئصال المعذَّبين بعامّة .

والمطلب الثّالث : في أنواع المَثُلاَت . وفيه بيان أبعاد المَثُلاَت من خلال عرض

أعظم أنواعها ؛ وهي الغرق ، والرِّيح ، والصّيحة ، والائتفاك ، والخسف ، والمسخ .

والخاتمة في ذكر نتائج البحث .

وقد عالجت قضايا البحث ومسائله وفق قواعد البحث العلميّ ؛ فبدأت باستقراء النّصوص للخروج برؤية متكاملة للموضوع ، ثُمَّ جمعت مادّة البحث من المصادر المعتمدة ، وحرصت على أن تكون صياغته بأسلوب علميّ محدد وموثّق وفق الأعراف المتّبعة في هذا الفنّ . واللّه الموفّق والهادي إلى سواء السبيل .

المطلب الأوّل : مَعْنَى المَثُلاَت

مَعْنَى المَثُلاَت لغة

المَثُلاَت بفتح الميم وضمّ الثّاء جمع مؤنّث سالم مفرده (مَثُلة) . والمَثُلة والمُثْلة اسم للعقوبة المنكِّلة لا لمطلق العقوبة ؛ يقال : حلّت به المَثُلة إذا نزلت به عقوبة شديدة تنكل غيره ؛ أي تمنعه عن ارتكاب مثل ذنبه ، قال تعالى : { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا } [البقرة : ٦٦] ؛ أي عقوبة تمنع عن مثل ما فعل أصحاب السبت من استحلال محارم اللّه بأدنى الحيل .

والغالب أَنَّ المَثُلة تكون باستئصال بعض الأعضاء ؛ كجدع الأنف ، أو قطع الأذن ، أو شيئًا من الأطراف ، ومنه التّمثيل بالقتلى ، والتّمثيل بالحيوانات ، يقول ابن الأثير : ((يقال : مَثَلْت بالحيوان أمثل به مَثْلاً إذا قطعت أطرافه ، وشوّهت به ، ومَثَلْت بالقتيل إذا جدعت أنفه ، أو أذنه ، أو مذاكيره ، أو شيئًا من أطرافه ،

والاسم المَثُلة)) [١] .

وقد اختلف علماء اللّغة في أصل المَثُلة ومأخذها على قولين :

أحدهما : أنَّها مأخوذة من المثل المضروب ؛ لأَنَّ العقوبة إذا خرجت عن المعهود في الشدّة ضرب بها وبمن حلّت به المثل . وهذا قول الأزهريّ [٢] .

والثّاني : أنَّها مأخوذة من المِثْل ؛ لأنَّها تزجر عن مثل ما وقعت لأجله ، أو لأنَّها إذا نزلت بإنسان جعلته مثالاً يرتدع به غيره . وهذا قول ابن فارس والرّاغب[٣].

والظَّاهر أَنَّ المَثُلة مأخوذة من مجموع ما ذكروا ؛ فإِنَّ العقوبة إذا خرجت عن المعهود أصبحت مثلاً في الشدّة ، وأصبح مآل أهلها عبرة للآخرين ؛ فمن فعل مثل فعلهم لقي مثل جزائهم ؛ إذ العبرة قياس تمثيلي لمضرب المثل بمورده [٤] .

مَعْنَى المَثُلاَت اصطلاحًا: اختلف علماء الشّريعة في تفسير المَثُلاَت على ثلاثة أقوال : ـــ

أحدها : أنَّها بمعنى الأمثال المضروبة ، يقول أبو عبيدة معمر بن المثنّى : ((واحدها

---

(١) النهاية لابن الأثير ٢٩٤/٤ . وانظر : تهذيب اللّغة للأزهري ٣٣٤٢/٤ ، الصحاح للجوهري ١٨١٦/٥ ، ١٨٣٥ ، معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ٢٩٦/٥ ، ٢٩٧ ، المفردات للراغب ص٤٦٣ أساس البلاغة للزّمخشريّ ص٤٢٠ ، لسان العرب لابن منظور ٦١٤/١١ ، ٦١٥ ، ٦٧٧ ، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٥٠/٤ ، المعجم الوسيط ص٨٥٣ ، ٨٥٤ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ص٦١٤

(٢) انظر : تهذيب اللّغة ٣٣٤٢/٤ .

(٣) انظر : معجم مقاييس اللّغة ٢٩٧/٥ ، المفردات ص٤٦٣ .

(٤) المراد بالمورد الحالة الأصليّة الّتي ورد فيها الكلام ، بالمضرب الحالة المشبَّهة بها . انظر : كشّاف اصطلاح الفنون للتهانوي ١٣٩/٤ .

مثلة ، ومجازها مجاز الأمثال)) [٥] ؛ أي معناها معنى الأمثال المضروبة ، يقول ابن الجوزي: ((المَثُلاَت الأمثال الَّتي ضربها اللّه ﷻ لهم ((قاله مجاهد وأبو عبيدة)) [٦] .

وقد استضعف أبو جعفر النحّاس هذا القول ؛ لأَنَّ المعروف في اللّغة أَنَّ العقوبة الشّديدة يطلق عليها مَثُلة ومُثْلة لا مثلاً [٧] ، ولكن ما قاله ليس مسلّمًا على إطلاقه ؛ فإنَّ هذا القول له ثلاثة محامل صحيحة : ـ

أن يفسَّر المثل بمعنى القصّة العجيبة ؛ فإنَّ المثل السائر يستعار للقصّة إذا كان لها شأن وفيها غرابة [٨] ؛ فيكون المراد قصص ما حلَّ بالمكذِّبين من النكال العجيب ، والهلاك المنقطع النّظير.

أن يكون المراد بالمثل العقوبة البالغة ؛ فإنَّ العقوبة إذا خرجت عن المعهود ضرب بها وبمن حلّت به المثل ؛ فيكون تفسيرًا للمثلة باعتبار المآل لا باعتبار الحقيقة .

أن يكـــون المراد بالأمثال أمثال المعاني لا الأمثال السائرة [٩] ؛ وأمثال المعاني عبارة عن أقيسة تـــدلّ علـــى أَنَّ مـــن فعل مثل من حلّت به المَثُلاَت لقي مثل جزائهم ، فيعود إلى تفسير المَثُلة بالـــنّكال ؛ وهـــي العقـــوبة الَّتي تمنع النَّاس عن أفعال المعذّبين ؛ لئلا يحلّ بهم من المَثُلة ما حلّ بالأوّلين [١٠] . وهذا المعنى هو عين ما دلّت عليه أمثال المعاني .

الثَّاني : أنَّها بمعنى الأشباه والأمثال ؛ يقول الإمام البخاريّ : ((المَثُلاَت واحدها

---

(٥) مجاز القرآن ٣٢٣/١ .

(٦) زاد المـــسير ٣٠٦/٤ ، وانظر : تفسير الطبري ١٠٥/١٣ ، الدرّ المنثور ٤٤/٤ ، البرهان للزركشي ١/ ٤٠٩ .

(٧) انظر : معاني القرآن ٣٧٢/٣ .

(٨) انظر : البرهان للزركشي ٤٨٨/١ ، ٤٨٩ .

(٩) أمـــثال المعاني عبارة عن القياس بعينه سواءً أكانت معيّنة أم كليّة . انظر : مجمـــــوع الفتاوى لابن تَيْمِيَّة ٥٤/١٤ ــ ٦٨ ، ٤١/١٦ .

(١٠) انظر : النهاية لابن الأثير ١١٧/٥ .

مثلةٌ ؛ وهي الأشباه والأمثال ، وقال : { إلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا } [يونس : ١٠٢] [(١١)]، واستدلاله يفصح عن مراده ؛ فإنَّ ما أصاب القرون الماضية من العذاب متشابه في العلّة والأخذة الفذة بالعقوبة ؛ فهي دائرة مع الكفر وشعبه وجودًا وعدمًا ؛ ولهذا كانت مطردة ؛ فكلّ من فعل مثلهم لقي مثل جزائهم ، قال تعالى : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [محمَّد : ١٠]

وقد ذكر الزَّمخشريّ ومن وافقه وجهًا يختلف عمّا ذكر آنفًا من وجه التشابه في المَثُلاَت ؛ فذكروا أَنَّ ما حلّ بالقرون الأولى من العقوبة يشابه ما كانوا عليه من الخطيئة؛ ولهذا أطلق عليها مثلة كما أطلق على القصاص مثالاً ؛ لمماثلة الجزاء للذنب [(١٢)] .

وهو وجه حسن يشهد له قوله تعالى : { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } [الشورى : ٤٠] ، واستقراء آحاد المَثُلاَت يدلّ على أَنَّ جزاء كلّ أمّةٍ كان من جنس عملها ، ولكن هذا المعنى لا يختصّ بالمَثُلاَت ؛ فما من عقوبةٍ ينزلها اللّه بالعباد إلاَّ وهي مناسبةٌ لأعمالهم ، فيلزم على هذا أن تطلق المَثُلة على كلّ عقوبةٍ لا على العقـوبات المنكلة خاصة ، أو ألا تكون المناسبة المذكورة مناط التسمية بالمُثُلاَت ، والأوَّل باطل لمخالفته مَعْنَى المَثُلاَت المعروف لغةً وشرعًا ، فيتعيّن الثَّاني ، فلا تكون مناسبة العقاب للذّنب مناط تسمية المَثُلة وإن كان معتبرة فيها كما تعتبر في كلّ عقوبة .

والثَّالث : أَنَّ المَثُلاَت هي العقوبات المنكِّلات المتفرّدة عن النظائر ، يقول الطبري في تفسيرها : ((ما حلَّ بمن خلا قبلهم من الأمم الَّتي عصت ربّها ، وكذّبت رسلها من

(١١) انظر : صحيح البخاريّ : كتاب التّفسير ، سورة الرعد (فتح الباري ٣٧٠/٨) .

(١٢) انظر : الكشّاف للزَّمخشريّ ٣٥٠/٢ ، تفسير الرّازيّ ١١/١٩ ، تفسير النسفي ٢٤٢/٢ ، تفسير أبي السعود ١٤٩/٣ .

عقوبات اللّه ، وعظيم بلائه ، فمن بين أمّة مسخت قردة ، وأخرى خنازير ، ومن بين أمّة أهلكت بالرّجفة ، وأخرى بالخسف ، وذلك هو المَثُلاَت الَّتي قال اللّه ــ جلّ ثناؤه ــ : { وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ } [الرعد : ٦] ؛ والمَثُلاَت العقوبات المنكلات)) [١٣] ؛ فتضمّن كلامه ــ رحمه اللّه ــ تحديد حقيقة المَثُلاَت بأمرين مهمّين : ــ

تنكيل العباد ؛ أي منعهم ، وزجرهم بعظم العقوبة عن مقارفة أمثال أفعال المعذّبين ؛ لئلا يصيبهم مثل ما أصابهم . وقد اقتصر بعض العلماء على هذا الجانب ؛ يقول ابن عطيّة : ((المَثُلاَت هي العقوبات المنكلات الَّتي تجعل الإنسان مثلاً يتمثل به)) [١٤] ، ويقول الخازن : ((المَثُلة بفتح الميم وضمّ الثاء المثلثة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع غيره به ؛ وذلك كالنكال ، وجمعه مثلات)) [١٥] .

الخروج عن المعهود في جنس العقوبات ؛ وهذا ما يدلّ عليه ما ذكره الطبري من أمثلة للمثلات ؛ فإنَّ المسخ والرّجف والخسف خارجة عن مقدور الجن والإنس في العقوبات ؛ ولا يقدر عليها إلاَّ اللّه وحده ، وقد نبّه ابن عطيّة على هذا المعنى في قوله : المَثُلاَت ... جمع مثلة ؛ أي الأخذة الفذة بالعقوبة)) [١٦] ؛ والعقوبة الفذة هي الشاذة عن المعهود ، أو المتفرّدة عن النّظائر [١٧] .

---

(١٣) تفسير الطبري ١٣/١٠٥ .

(١٤) المحرّر الوجيز ٣/٢٩٦ .

(١٥) تفسير الخازن ٣/٥ ، وانظر : التّسهيل لابن جزي ١/٤٠٠ ، حاشية الشهاب للخفاجي ٥/٣٨٥ ، روح المعاني للآلوسي ١٣/١٠٦ ، حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٢٩ ، محاسن التّأويل للقاسمي ٩/٣٣٠

(١٦) المحرّر الوجيز ٣/٢٩٦ .

(١٧) انظر : القاموس المحيط ١/٣٧٠ ، المعجم الوسيط ص٦٧٨ .

وهذا الجانب يستلزم الأَوَّل لا العكس ؛ ولهذا اقتصر عليه أكثر علماء السّلف وإن اختلفت عباراتهم في التعبير عنه ، يقول ابن عبَّاس ـ رضي اللّه عنهما ـ : ((المَثُلاَت ما أصاب القرون الماضية من العذاب)) (١٨) ، وقال قتادة : ((وقائع اللّه في الأمم فيمن خلا قبلكم)) (١٩) ، وقال الشعبي : ((القردة والخنازير هي المَثُلاَت)) (٢٠) . فاكتفى هؤلاء الأعلام في تحديد المَثُلاَت بذكرها أو ذكر بعض أنواعها ، وذلك كافٍ في تصوّر تلك العقوبات المنكلات الخارجة عمَّا يقدر عليه الجنّ والإنس من أصناف العقوبات ؛ ولهذا فإنَّ دراسة أنواع المَثُلاَت أعظم من التّحديد النظري في التعرّف على مَعْنَى المَثُلاَت ، وتصوّر أبعاده .

المطلب الثّاني : دلالات مَعْنَى المَثُلاَت

ما ذكره العلماء في بيان مَعْنَى المَثُلاَت يرجع إلى تفسيرها بالأمثال المضروبة ، أو الأشباه والأمثال ، أو العقوبات المنكلات ، وكلّ منها ينبئ عن بعد للكلمة ، ويوضّح جانبًا من معناها ؛ فمن فسّر المَثُلة بالعقوبة المنكلة الفذة فإنَّ تفسيره يدلّ على خروج العقوبة عن المعهود في الشدّة ، وعلى استئصال من حلّت به العقوبة ، ويدلّ أيضًا على اطّراد العقوبة ؛ فإن وصف العقوبة بالتنكيل يدلّ على منع المكلّفين عن مثل أفعال المعذّبين ؛ لأَنَّ مثلات اللّه دائرة مع أسبابها ؛ فحيث وجد السّبب وجدت العقوبة .

أمَّا من فسّرها بالمثل والشبيه فإنَّ تفسيره يدلّ على اعتبار المشابهة في مَعْنَى المَثُلة؛

(١٨) الدرّ المنثور للسيوطي ٤٤/٤ . وانظر : تفسير الطبري ١٠٥/١٣ ، زاد المسير لابن الجوزي ٣٠٥/٤ ، فتح الباري لابن حجر ٣٧١/٨ .

(١٩) تفسير الطبري ١٠٥/١٣ ، الدرّ المنثور ٤٤/٤ .

(٢٠) تفسير الطبري ١٠٦/١٣ ، الدرّ المنثور ٤٤/٤ .

وهو اعتبار صحيح ؛ فجميع مثلات اللّه متشابهة في الأخذة الفذة بالعقوبة ، وفي دورانها مع الكفر وجودًا وعدمًا ، وفي اختلاف صورها تبعًا لاختلاف شعب الكفر ؛ ولهذا كان جزاء كلّ أمّةٍ من جنس عملها ، مناسبًا له مناسبة المعلول لعلّته .

وأَمَّا من فسّر المَثُلة بالمثل المضروب ، ففي تفسيره دلالة على شهرة مثلات الربّ ووضوحها ، وعلى أنَّها براهين إيمانيّة تلائم الفطر ، وتدلّ للحقّ الَّذي جاءت به الرّسل ؛ شأنها في ذلك شأن المثل المضروب في شدّة وضوحه ، واشتماله على البراهين الملائمة لفطر الخلق أجمعين ؛ ولهذا يعتبر المثل حجّةً لغةً (٢١) وشرعًا ، قال تعالى : { وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ } [الفرقان : ٣٩] ؛ أي بيّنّا لهم الحجج ، وأوضحنا لهم الأدلّة (٢٢) ، وقال : { وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ } [الزخرف : ٥٩] ؛ أي جعلنا صفة عيسى عليه السلام العجيبة حجّةً على نبوّته (٢٣) .

وهذه المعاني الَّتي دلّت عليها مجامع أقوال العلماء في تفسير المَثُلاَت يمكن النّظر إليها مجتمعةً باعتبارين : ــ

أحدهما : باعتبار ذات المَثُلاَت وصفاتها ؛ وهي بهذا الاعتبار تنتظم ثلاث دلالات : ــ

الدلالة على خروج المَثُلاَت عما يعهد من عقوبات الخلق .

الدلالة على مشابهة المَثُلاَت لأسبابها .

الدلالة على شهرة المَثُلاَت ووضوحها للمتوسمين ؛ وهم الناظرون المعتبرون (٢٤)

---

(٢١) انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤٩/٤ .

(٢٢) انظر : الجواب الصّحيح لابن تَيْمِيَّة ٣٨٢/٦ ، تفسير ابن كثير ٣١٩/٣ .

(٢٣) انظر : تهذيب اللّغة للأزهري ٣٣٤١/٤ ، ٣٣٤٢ ، تفسير القرطبي ١٠٤/١٦ .

(٢٤) انظر : تفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

والثّاني : باعتبار آثار المَثُلاَت وحجيّتــــها ؛ وهي بهذا الاعتبار تنتظم ثلاث دلالاتٍ أيضًا : ـ

الدلالة على استئصال المعذّبين بعامةٍ ، وقطع دابرهم .

الدلالة على صدق الرّسل ، وصحّة دينهم .

الدلالة على اطراد المَثُلاَت .

خروج العقوبة عن المعهود

مثلات الربّ لا تدلّ على مطلق العقوبة ، وإنَّما تدلّ على العقوبة الفذة ؛ أي الشاذة عن المعهود ، والمتفردة عن النظائر ، وهذه خاصة براهين النبوّة ؛ فإنَّها خارجة عن مقدور الخلق ومعتادهم ؛ ولهذا كانت مثلات الربّ من آيات صدق رسله ، وصحّة دينهم [٢٥] ، قال تعالى : { وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : ٦٥ ـ ٦٧] ؛ وقد تكرّر التنصيص في السورة على دلالة المَثُلاَت عقب ذكر ما حلَّ بقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ولوط ، وشعيب ؛ لأَنَّ كلّ واقعة تحمل في ذاتها خاصيّة براهين النبوّة من التفرّد عن النظائر ، والخروج عن معتاد الخلق في العقاب ، يقول ابن تَيْمِيَّة : ((تغريق اللّه لجميع أهل الأرض إلاَّ لنوح ومن ركب معه في السفينة .. لم يكن قطّ في العالم نظيره ، وكذلك إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد الَّتي لم يخلق مثلها في البلاد ، مع كثرتهم وقوّتهم وعظم عماراتهم الَّتي لم يخلق مثلها في البلاد ثُمَّ أهلكوا بريح صرصرٍ عاتية ، مسخّرةٍ سبع ليالٍ وثمانية أيَّام حسومًا حتَّى صاروا كلّهم كأنَّهم أعجاز نخل خاوية ، ونجا هود ومن اتّبعه ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم . وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن في السّهل والجبل والبساتين أهلكوا كلّهم بصيحة واحدة ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم . وكذلك قوم

(٢٥) انظر : كتاب النبوات لابن تَيْمِيَّة ١/١٤٤ ـ ١٥٠ ، ١٩٠ .

لوط ، أصحاب مدائن متعدّدة ، رفعت إلى السماء ، ثُمَّ قلبت بهم ، وأتبعوا بحجارة من السماء ، تتبع شاذهم ، ونجا لوط وأهله إلاَّ امرأته أصابها ما أصابهم ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم . وكذلك قوم فرعون وموسى جمعان عظيمان ، ينفرق لهم البحر ، كلّ فرق كالطود العظيم ، فيسلك هؤلاء ، ويخرجون سالمين ، فإذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء ، فهذا لم يوجد نظيره في العالم . فهذه آيات تعرف العقلاء عمومًا أنَّها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم ، وقد يحصل لبعض النَّاس طاعون ، ولبعضهم جدب ، ونحو ذلك ، وهذا مِمّا اعتاده النَّاس ... ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد)) [٢٦] .

مشابهة المَثُلاَت لأسبابها

كلمة المَثُلاَت تنبئ عن مشابهة عقوبات اللّه لأسبابها ، وهذا واقع المَثُلاَت بالفعل؛ فقد كان عذاب كلّ أمّة مماثلاً لجرائرها وجرائمها ؛ فأهلكت عاد الأولى بجنس ما اغترّوا به من قوّتهم ، وسلّطت عليهم ريح أعتى منهم ، وأشدّ قوّة [٢٧] . وأهلكت المؤتفكات بما يماثل ما ابتدعوه في العالمين من قلب الفطرة في قضاء الوطر ؛ فقلبت ديارهم ، وأهلكوا هلاكًا ما حلَّ بأمّة غيرهم كما ابتدعوا ما لم يفعله أحد قبلهم [٢٨] . وأهلكت مدين بعذاب يوم الظلّة ؛ فأرسلت عليهم صاعقة راجفة ، تناسب إرجافهم واستهزاءهم ، وتحرق أجسادهم وأموالهم الَّتي اكتسبوها ببخس النَّاس أشياءهم [٢٩] .

---

(٢٦) كتاب النبوّات ٥٠٩/١ ، ٥١٠ .

(٢٧) انظر : مجموع الفتاوى لابن تَيْمِيَّة ٢٥٠/١٦ ، تفسير ابن كثير ٣٤٢/٣ ، ٩٥/٤ .

(٢٨) انظر : الجواب الكافي لابن القيِّم ص١٢٠ ، ١٢١ .

(٢٩) انظر : مجموع الفتاوى لابن تَيْمِيَّة ٢٤٩/١٦ ، ٢٥٠ ، تفسير ابن كثير ٣٤٦/٣ .

وقد تنوّعت المَثُلاَت في بني إسرائيل بحسب ذنوبهم وجناياتهم ؛ فعذّب قارون بالخسف ؛ لتعاليه على الخلق ، وردّه للحقّ ، وعذّب السامري بالحرمان من ملامسة الخلق ؛ لمسّه ما لم يؤذن له من أثر الرَّسول ؛ فكان بنو إسرائيل لا يماسونه ، ولا يؤاكلونه، ولا يخالطونه ، ولا يبايعونه (٣٠) ، وعذّب أصحاب السّبت بتبديل خلقتهم لتبديلهم دين اللّه ، واستحلال محارمه بأدنى الحيل ، يقول ابن كثير : ((مسخهم اللّه إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشّكل الظّاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحقّ في الظّاهر ومخالفةً له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم)) (٣١) .

وهكذا ما يحلّ من المَثُلاَت بأمّة محمَّد ﷺ فإنَّها تناسب آثامهم ، وما باتوا عليه من الجرائم ؛ روى ابن ماجه بسنده عن أبي مالك الأشعري ﷺ مرفوعًا : ((لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا ، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ)) (٣٢) ، يقول ابن تَيْمِيَّة : ((مسخوا قردة وخنازير كما مسخ أصحاب السّبت بما تأولوا من التَّأويل الفاسد الَّذي استحلّوا به المحارم ، وخسف ببعضهم كما خسف بقارون ؛ لأَنَّ في الخمر والحرير والمعازف من الكبر والخيلاء ما في الزينة الَّتي خرج فيها قارون على قومه ، فلمّا مسخوا دين اللّه

---

(٣٠) انظر : تفسير الطبري ٢٠٦/١٦ ، تفسير ابن كثير ١٠٢/١ ، ١٦٤/٣ .

(٣١) تفسير ابن كثير ١٠٥/١ .

(٣٢) سنن ابن ماجه : كتاب الفتن ، باب العقوبات ١٣٣٣/٢ ، ح (٤٠٢٠) .

قال ابن القيّم : هذا إسناد صحيح . إغاثة اللهفان ٣٨٢/١ ، وانظر : صحيح الجامع الصَّغير للألباني ٢ /٩٥٩ ، ح (٥٤٥٤) .

مسخهم اللّه ، ولّما تكبّروا عن الحقّ أذلّهم اللّه)) [٣٣] .

شهرة المَثُلاَت ووضوحها :

تتميّز الأمثال بالشّهرة والوضوح ، ومثلات الرب أعظم الأمثال ، وأكثرها شهرةً ووضوحًا ؛ ولهذا ضرب بها وبمن حلّت به المثـــل في أفصح الكلم ، قال تعالى : { وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ } [إبراهيم : ٤٥] ، وقال ﷺ : ((لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)) [٣٤] ، وفي روايـــة : ((قَتْلَ ثَمُودَ)) [٣٥] ، وتقول العرب : ((تفرّقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا)) [٣٦] .

ومّما يدلّ على شهرة المَثُلاَت ووضوحها ما ذكره اللّه من صفاتها ومتعلقاتها ، قال تعالى : { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى } [طه : ١٢٨] ؛ وقال : { وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [العنكبوت : ٣٥] ؛ والآية هي العلامة الظاهرة عقليّةً كانت أم حسيّة ، ووصفها بالبيان وهو الظهور والاتضاح والانكشاف يدلّ على شدّة ظهورها ووضوحها [٣٧] ؛ ولهذا جعل اللّه مثلاته براهين على أعظم أمور الدِّين وأشهرها ؛ وهي معرفة الرب وتوحيده

---

(٣٣) الفتاوى الكبرى ١٢٩/٣ ، ١٣٠ .

(٣٤) صحيح مسلم : كتاب الزّكاة ، باب ذكر الخوارج ٧٤٢/٢ .

(٣٥) المرجع السّابق ٧٤٣/٢ .

(٣٦) لسان العرب لابن منظور ٩٤/١ .

والعـــرب لا تهمـــز سبا في هذا الموضع تخفيفًا ، والمراد باليد الطّريق ؛ يقال : أخذ القوم يد البحر ؛ أي طريق الساحل ، وهو مثل تضربه العرب للفرقة ؛ أي تفرّقوا في طرق سبأ الّتي مزّقتهم كلّ ممزّق. انظر : النهاية لابن الأثير ٢٩٤/٥ ، لسان العرب ٩٤/١ .

(٣٧) انظر : معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ٣٢٨/١ ، المفردات للراغب ص٣٣ ، ٦٨ .

وصدق رسله [٣٨] . وواقع المَثُلاَت مصداق لشهرتها ووضوحها ؛ فإنَّها أمر محسوس مشاهد ، معلوم بالاضطرار للنّاس عامّةً ، فما من أحد منهم إلاَّ وقد سمع من ذلك أنواعًا أو رأى بعضه [٣٩]؛ قال تعالى : { وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ } [العنكبوت : ٣٨] . وقال : { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } [الحجر : ٧٦] . وقال : { وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } [الحجر : ٧٩] ؛ أي آثار ما حلَّ بقوم لوط وأصحاب الأيكة من المَثُلاَت بطريق واضح يراه كلّ من يمرّ بهم [٤٠] .

الاستئصال بعامّةٍ

الغالب أَنَّ المَثُلة تطلق لغةً على العقوبة المستأصلة ، وهي كذلك في الإطلاق الشرّعيّ ؛ فإنَّ الغالب على مثلات الربّ الدلالة على استئصال المعذّبين عن آخرهم حتَّى لا يبقى منهم باقية ، واستقراء أدلّة المَثُلاَت يدلّ على اعتبار الاستئصال في مفهوم المَثُلاَت من وجوه ، منها : ـــ

١ ـــ أَنَّ ما حلَّ بمعظم المكذّبين من قوم نوح وحتَّى نزول التوراة كان استئصالاً عامًّا قطع دابرهم واستأصل شأفتهم حتَّى إنَّ العذاب كان يتتبع شذاذهم في الآفاق فلا يبقي منهم عينًا تطرف ، قال تعالى : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ } [هود : ٨٢] ، يقول ابن كثير : ((نزلت الحجارة على أهل البلد وعلى المتفرّقين في القرى مما حولها ، فبينا أحدهم يكون عند النَّاس يتحدّث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين النَّاس فدمّره فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتَّى

(٣٨) انظر : العذب النمير للشنقيطي ٤٦٣/١ .

(٣٩) انظر : مجموع الفتاوى لابن تَيْمِيَّة ١٥٠/١٩ .

(٤٠) انظر : تفسير القرطبي ٤٥/١٠ ، تفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ ، ٥٥٦ .

أهلكتهم عن آخرهم ، فلم يبق منهم أحد)) [٤١] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد اللّه ﷺ قال : ((لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ : لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا ، فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا فَعَقَرُوهَا فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ قِيلَ : مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : هُوَ أَبُو رِغَالٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ)) [٤٢] ، وروى أبو داود بسنده عن عبد اللّه بن عمرو ﷺ قال : ((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ فَمَرَرْنَا بِقَبْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ ، وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ فَدُفِنَ فِيهِ ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ ، فَابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخْرَجُوا الْغُصْنَ)) [٤٣] .

---

(٤١) تفسير ابن كثير ٤٥٥/٢ [بتصرّف يسير] .

(٤٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل : باقي مسند المكثرين ، ح (١٣٦٤٤) ، يقول ابن كثير : ((هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة ، وهو على شرط مسلم . تفسير ابن كثير ٢٢٧/٢ .

(٤٣) سنن أبي داود بشرحه عون المعبود : كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب نبش القبور العادية ٣٤٦/٨ ح (٣٠٧٢) . قال المزي : هو حديث حسن عزيز ، ولكن قال ابن كثير : تفرّد بوصله بجير بن أبي بجير ، وهو شيخ لا يعرف إلاَّ بهذا الحديث ، فيخشى أن يكون وهم في رفع الحديث ، وإنَّما يكون من كلام عبد اللّه بن عمرو ممّا أخذه من الزاملتين . قال شيخنا المزي بعد أن عرضت عليه ذلك : هذا محتمل . تفسير ابن كثير ٢٢٩/٢ [بتصرّف يسير] . وقال ابن حجر : بجير بن أبي بجير مجهول . تقريب التّهذيب ٩٣/١ ، والمجهول من المرتبة الثّالثة من مراتب الجرح الَّذين تصلح أحاديثهم بعد الاعتبار . انظر : تدريب الرّاوي ٣٤٦/١ ، ٣٤٨ ، فتح المغيث للسخاوي ٣٧٢/١ ، ٣٧٣ ، وعلى هذا فإنَّ الحديث يمكن اعتباره فيما نحن بصدده ؛ لأَنَّ حديث جابر المذكور قبله يشهد للقدر المراد منه ، ويدلّ على أَنَّ له أصلاً .

٢ــ أَنَّ المَثُلاَت فسّرت في القرآن الكريم بالعذاب المستأصل ؛ وذلك أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ينذرهم بالعذاب المستأصل ، ويقول لهم كما أمره اللّه تعالى : { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ } [فصّلت : ١٣] ، فكانوا يستعجلونه في نزوله ؛ طعنًا في خبره واستهزاءً به ، فنزل قوله تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ } [الرّعد : ٦] ؛ فعلم أَنَّ المراد بالمَثُلاَت ما كان يخوّفهم به النَّبيُّ ﷺ من أنواع العقوبات المستأصلة [٤٤] ، وكذلك الأنبياء من قبله مع أممهم ؛ فإنَّ الإنذار بحلول المَثُلاَت المستأصلة سنّة الأنبياء وأتباعهم على مدى الدّهر ، قال تعالى ــ حكاية عن شعيب ــ : { وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } [هود : ٨٩] ، وقال ــ حكاية عن مؤمن آل فرعون ــ : { يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ } [غافر : ٣٠ ، ٣١] .

٣ ــ أَنَّ اللّه أخبر عمَّا حلَّ بأعدائه من المَثُلاَت بما يدلّ على الاستئصال بعامّة ؛ كقوله تعالى ــ عن مدين وثمود ــ : { فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : ٦٧ ، ٩٤] ؛ وقوله : { وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ } [الشعراء : ٦٥ ، ٦٦] ، وقوله : { فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [الأعراف : ٧٢] ؛ يقول ابن عطيّة : ((الدابر الَّذي يأتي آخر القوم ؛ أي في أدبارهم ، وإذا قطع ذلك وأتى عليه فقد أتى العذاب من أوّلهم إلى آخرهم . وهذه ألفاظ دالّة على الاستئصال ، والهلاك التام)) [٤٥] ، ويقول الشنقيطي : ((قطع الدابر معناه إهلاكهم المستأصل بحيث لا يبقى لهم نسل في الأرض يكون حيًّا عن دبر منهم ، بل

(٤٤) انظر : صفوة البيان لحسنين مخلوف ١/٤٠٠ .

(٤٥) المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٣/٣٦٨ .

أهلكهم اللّه جميعًا)) [٤٦] . فقطع الدابر يدلّ على الاستئصال بعامّة باتّفاقهما ، وإن وقع اختلاف بينهما في المراد به ؛ هل المراد به آخر القوم أو نسلهم ؟ وهو اختلاف لا يؤثّر على دلالة اللّفظ على الاستئصال العام .

والأصل في الاستئصال بعامّة أن يكون على الفور ، وقد يكون على التراخي في بعض المَثُلاَت ؛ كما أصاب أصحاب السبت من بني إسرائيل ؛ فإنَّ اللّه مسخهم ثُمَّ أهلكهم بعامّةٍ ، يقول ابن عبَّاسٍ ـــ رضي اللّه عنهما ـــ : ((لم يعش مسخ قطّ فوق ثلاثة أيّام ، ولم يأكل ، ولم يشرب ، ولم ينسل)) [٤٧] .

والمَثُلاَت تدلّ على الاستئصال بعامّة دلالةً أغلبية كما ذكر أَوَّل المسألة ؛ لأَنَّ المَثُلة قد تكون خاصّة بفردٍ بعينه ، وقد تكون بغير الاستئصال ، قال اللّه تعالى ـــ في قارون ـــ : { فَخَسَفْنَا به وَبِدَارِه الأَرْضَ } [القصص : ٨١] ، وقال ـــ في قوم سبأ ـــ : { فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [سبأ : ١٩] .

الدلالة على أصول الإيمان

المَثُلاَت كأصلها اللغوي ؛ فكما أن المثل حجّةٌ وبرهان فكذلك المَثُلاَت ؛ ولهذا سمّاها اللّه آيةً بطرق متعدّدة من طرق التوكيد ، وأخبر عن دلالتها بأسلوبٍ يفيد التّعظيم ، والتكثير ، واختصّ أهل الصفات العالية بصدق الاتعاظ بها ، وكمال الاعتبار ، قال تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى } [طه : ٥٤ ، ١٢٨] ، وقال : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [سبأ : ١٩] ، وقال : { وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ

(٤٦) العذب النمير ١٣٤٠/٣ .

(٤٧) تفسير القرطبي ٤٤١/١ ، تفسير ابن كثير ١٠٥/١ .

الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [الذاريات : ٣٧] ، وقال : { وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر : ١٥] .

وتتّسم دلالة المَثُلاَت بعدّة سماتٍ ، منها :.

١ ـــ ملاءمة الفطرة ؛ فكما أَنَّ الأمثال السائرة تلائم الفطرة فكذلك المَثُلاَت ، وسائر الطرق الشرعيّة ، يقول ابن رشد : ((الطرق الشرعيّة إذا تؤمّلت وجدت في الأكثر [٤٨] قد جمعت وصفين : أحدهما : أن تكون يقينيّة ، والثّاني أن تكون بسيطةً غير مركّبة)) [٤٩] .

ووصف الأدلّة الشرعيّة بالبساطة يعني قلّة مقدّماتها ، وقرب نتائجها ؛ ودلالتها على الإيمان بأول النّظر ، دلالة يشترك في فهمها العقلاء [٥٠] وإن تفاضلوا في فهم أبعادها ، ومعرفة تفاصيلها بحسب ما عندهم من قوّة الإيمان ، والصبر على النّظر في مدارك الأدلّة ، ولهذا علّق الانتفاع التام بدلالة المَثُلاَت على أعلى درجات الإيمان ، قال تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [سبأ : ١٩] .

وهذه الملاءمة شرط ضروري في عموم الرِّسالة ؛ ولهذا تعتبر الأدلّة الشرعيّة حجّة على كلّ من بلغته ، وتمكّن من معرفتها ، يقول ابن تَيْمِيَّة : ((حجّة اللّه برسله قامت بالتمكن من العلم ، فليس من شرط حجّة اللّه علم المدعوّين بها ؛ ولهذا لم يكن إعراض الكفّار عن استماع القرآن وتدبّره مانعًا من قيام حجّة اللّه عليهم ، وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء ، وقراءة الآثار المأثورة عنهم لا يمنع الحجّة ؛ إذ

(٤٨) يبدو أَنَّ هذا القيد للاحتراز المجرّد ؛ لأَنَّ جميع الأدلّة الشرعيّة لا تنفكّ عن هذين الوصفين .

(٤٩) الكشف عن مناهج الأدلّة ص (٥٩) .

(٥٠) انظر : الكشف عن مناهج الأدلّة ص (٥٩) ، طريق الوصول لابن سعدي ص ٤١١ .

المكنة حاصلة)) [٥١] .

٢ ـــ الاستمرار ؛ فبرهان المُثلاَت لا يختصّ بزمنٍ ، أو حال معيّن ؛ وإنَّما هو مستمرّ على مدى القـــرون ، وهذا مطابق لمعتقد أهل السنة والجماعة في براهين النبوّة ؛ فإنَّهم يعتقـــــدون أنَّ : ((آيات النبوّة وبراهينها تكون في حياة الرّسول ، وقبل مولده ، وبعد مماته ، لا تختصّ بحياته ، فضلاً عن أن تختصّ بحال دعوى النبوّة ، أو حال التحدي)) [٥٢] ؛ وبهذا يظهر ضعف ما عليه المحققـــــون مـــن الأشاعرة من اشـــــتراط مقارنة الآية لدعوى النـــبوّة أو الرِّسالة حقيقة أو حكمًا [٥٣] ؛ فإنَّ استمرار برهان المُثلاَت ظاهر لكلّ أحد .

٣– الدلالـــة العقلـــيّة ؛ فـــبرهان المُثلاَت من جملة الأدلّة العقليّة الَّتي جاء بها النّقل ، وعلمت بالمـــشاهدة ، يقول ابن القيّم : ((ومن بعض الأدلّة العقليّة ما أبقاه اللّه تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك ، وآثار ديارهم ، وما حلَّ بهم ، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد ، وإعزازهم ، وجعل العاقـــبة لهم)) [٥٤] . وهذا البرهان ونظائره [٥٥] يبطل ما عليه المتكلّمون من عدم الاستدلال بالنّقل على الإلهيّات ؛ فرارًا من الدور ؛ لأَنَّ أدلّة النَّقل ليست سمعيّة محضة كما توهّموا ؛ وإنَّما هي سمعيّة وعقليّة معًا [٥٦] .

٤ – عموم الدلالة ؛ فدليل المُثلاَت كسائر آيات الرب لا تختصّ بمطلوب معيّن وإنَّما تدلّ على أمّهـــات المطالب الدينيـــــة ؛ كإثبات الصانع ، والتوحيد ، والصفات ،

---

(٥١) الرَّدّ على المنطقيين ص٩٩ . وانظر : طريق الهجرتين لابن القيّم ص ٤١٢ ، مدارج السالكين لابن القيّم أيضًا ٢١٧/١ .

(٥٢) الجواب الصّحيح لابن تَيْمِيَّة ٣٨٠/٦ .

(٥٣) شرح الجوهرة للبيجوري ص١٣٣. ومرادهم بالمقارنة حكمًا تأخّر الآية عن الدعوى بزمن يسير. المرجع نفسه .

(٥٤) مدارج السالكين ٤٩٢/٣ .

(٥٥) انظر في بيان النظائر كتاب الأدلّة العقليّة للعريفي كاملاً .

(٥٦) انظر : الرِّسالة التدمريّة لابن تَيْمِيَّة ص١٤٦ ـــ ١٥٠ .

والمعاد ، والنبوّة ؛ ولهذا أطلق اللّه دلالتها ولم يقيدها بمطلوب معيّن لا في حال الإفراد ولا في حال الجمع ، قال تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ } [هود : ١٠٣] ، وقال : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [سبأ : ١٩] ، يقول ابن القيّم : ((تأمّل وجه كونها آية ، وعلى ماذا جعلت آية ؟ أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعدّدة ؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط)) (٥٧) .

اطراد المَثُلات :

الاطراد بمعنى التتابع ؛ يقال : اطرد الشّيء اطرادًا إذا تبع بعضه بعضًا ؛ وعلى هذا قولهم : اطّرد الكلام ؛ أي تتابع ، وجرى مجرى متّسقًا ، واطّرد الماء ؛ أي تتابع سيلانه ، وجريان مائه ، واطّرد القياس ؛ أي تبع الحكم الوصف وجودًا وعدمًا (٥٨) . فاطّراد المَثُلات إذن يعني : تتابع العقوبات وهذا المعنى متحقّق فعلاً في حقّ المعذّبين ، وفي حقّ من بعدهم من المجرمين .

أمَّا تتابع العقاب واستمراره في حقّ المعذّبين فإنَّ ما حلَّ بهم من المَثُلة متّصل بعذاب البرزخ ؛ فهم في عقاب دائم متتابع إلى يوم القيامة ، قال تعالى ـــ في قوم لوط ـــ: { وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ } [القمر : ٣٨] ؛ أي دائم متّصل بعذاب البرزخ ، فلا يزول عنهم حتّى ينتهي بهم إلى النّار (٥٩) . وهذا الاطراد يحتمل أن يكون في جنس العذاب كما في قوله تعالى : { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا

(٥٧) بدائع الفوائد ١٦٣/٤ .

(٥٨) انظر : معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ٤٥٥/٣ ، لسان العرب لابن منظور ٢٦٧/٣ ، ٢٦٨ ، المعجم الوسيط ص٥٥٣ .

(٥٩) انظـــر : المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٢١٩/٥ ، حاشية الشهاب على البيضاوي ٣٧/٩ ، تفسير الجلالين بحاشيته للصاوي ١٩٤/٤ .

غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر : ٤٥ ، ٤٦] . ويحتمل أن يكون في نوع العذاب كما في قوله ﷺ : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلاءِ خُسِفَ بِهِ ، فَهُوَ يجلجل فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) [٦٠] .

وأَمَّا اطّراد المَثُلاَت في حق سائر المجرمين فقد دلّت عليه النّصوص بطرق متعدّدة ، منها : ـــ

١ ـــ النَّصّ على أَنَّ حكمة وقوع المَثُلاَت والإخبار عنها إنَّما هو زجر العباد عن مثل أفعال المعذَّبين ؛ لأَنَّ سنّة اللّه مطّردة في المكذّبين ؛ فمن فعل فعلهم لقي مثل جزائهم ، قال تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة : ٦٥ ، ٦٦] ، أي جعلنا ما حلَّ بهم عقابًا وزجرًا يمنع غيرهم عن مثل فعلهم ، لئلا يصيبهم ما أصاب أصحاب السبت [٦١] .

٢ ـــ أَنَّ اللّه أوعد المخاطبين بمثل عقوبة أسلافهم من المجرمين ، قال تعالى : { أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً } [الإسراء : ٦٨] والوعيد لا يكون إلاَّ بما يمكن وقوعه ؛ ولهذا تظاهرت الأخبار بوقوع شيء من المَثُلاَت في بعض من عصى وتمرّد من أمّة محمَّد ﷺ [٦٢] .

٣ ـــ أَنَّ اللّه أمر بالنّظر فيما حلَّ بالقرون الأولى من المَثُلاَت ، قال تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [النمل: ٦٩]، وحكمة الأمر بالنّظر الاعتبار بما حلَّ بالمكذّبين ، وحقيقة الاعتبار العبور من حكم الشّيء إلى حكم مثله بطريق الأولويّة أو المساواة [٦٣] . فمن الاعتبار بطريق الأولى قوله تعالى : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الأَرْضِ } [المؤمن : ٨٢]

---

(٦٠) صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب مَا ذكر عن بني إسرائيل ٦/٥١٥

(٦١) انظر : تفسير القرطبي ١/٤٤٣ ، تفسير ابن كثير ١/١٠٧ ، روح المعاني للآلوسي ١/٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٦٢) انظر : إغاثة اللهفان لابن القيّم ١/٣٩٠ .

(٦٣) انظر : مجموع الفتاوى لابن تَيْمِيَّة ١٤/٥٨ ، مدارج السالكين لابن القيّم ١/٤٤٧ .

وقال : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا } [مريم : ٧٤] ، وقال : { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا } [الزخرف : ٨] ؛ فدلّ إهلاك الأكثر عددًا وقوّة ومالاً ومنظرًا وبطشًا على إهلاك من هو دونهم من المخاطبين من باب أولى . وأيضًا فإنّ إهلاك المكذّبين الأوّلين دليل على إهلاك من كذّب محمَّدًا ﷺ من باب أولى ؛ لأنَّهُ أفضل الرّسل ، وأعظمهم رتبةً ، وأكثرهم أدلّة ، فمن كذّبه كان أحقّ بالعقاب ممَّن كذّب غيره من الأنبياء والرّسل (٦٤) .

وأَمَّا الاعتبار بطريق المساواة فإنَّه يكون في أصل العذاب ، ويكون في نوعه ؛ فمن الاعتبار في أصل العذاب قوله تعالى : { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا } [محمَّد : ١٠] ، وقوله : { أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ } [المرسلات : ١٦ ــ ١٨]. ومن الاعتبار في نوع العذاب قوله تعالى : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } [هود : ٨٢ ، ٨٣] ؛ فمن شابه قوم لوط في منكرهم فإنَّه عرضة لمثل عقابهم ؛ ولهذا أبقى اللّه مدائنهم عبرة للعالمين ، قال تعالى : { وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [الذاريات : ٣٧] ؛ يقول ابن تَيْمِيَّة : ((ما من أحد يبتلي بجنس عملهم إلاَّ ناله شيء من العذاب الأليم ، حتَّى تعمّد النّظر يورث القلب علاقةً يتعذّب بها الإنسان ، وإن قويت حتَّى صارت غرامًا وعشقًا زاد العذاب الأليم ، سواء قدّر أَنَّهُ قادر على المحبوب أو عاجز عنه ؛ فإنَّ هذا الجنس يحصل فيه من العذاب ما لا يحصل في غيره من أنواع العشق)) (٦٥) .

ولما أبقى اللّه من آثار مدائن قوم لوطٍ وغيرهم تأثير خاص في تحقيق الاعتبار ؛ ولهذا أنكر اللّه على من لم يعتبر بمشاهدتها ، وحرّم النَّبيُّ ﷺ دخولها لغير المعتبرين ؛

(٦٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤٢٦/٢ ، ٣٣/٣ ، ٩١ ، ٧١/٤ .

(٦٥) مجموع الفتاوى ١٥٦/١٤ ، ١٥٧ [بتصرّف يسير] .

قال تعالى : { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] ، وروى البخاريّ بسنده عَنْ عَبْدِاللَّه بْنِ عُمَرَ ــ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا ــ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : ((لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ)) (٦٦) .

وإذا كانت المَثُلاَت مطّردة في حقّ المجرمين إلى أن تقوم السَّاعة فإنَّه قد يستشكل على اطّرادها بأمرين : ــ

أحدهما : انقطاع المَثُلاَت بنزول التوراة ؛ فالمعروف أَنَّ إهلاك الأمم بعامّة ابتدأ بقوم نوحٍ كما قال تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ } [الإسراء : ١٧] ، ثُمَّ انقطع بنزول التوراة ، كما قال تعالى : { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى } [القصص : ٤٣] ، يقول ابن كثير : ((يعني أَنَّهُ بعد إنزال التوراة لم يعذّب أمّة بعامّة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء اللّه من المشركين)) (٦٧) ؛ ولهذا قال أبو سعيد الخدري ﷺ : ((ما أهلك اللّه قومًا بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير القريـــــة الَّتي مسخوا قردة ، ألم تر أَنَّ اللّه يقول : { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ... } الآية)) (٦٨) .

ومّما يدلّ على انقطاع المَثُلاَت قوله تعالى : { وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقّة : ٩ ، ١٠] ؛ فخصّ من كان

(٦٦) صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري : كتاب الصَّلاة ، باب الصَّلاة في مواضع الخسف والعذاب ١/٥٣٠ .

(٦٧) تفسير ابن كثير ٣/٣٩٠ ، وانظر : البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٢٧ .

(٦٨) رواه الطبري وابن أبي حاتم والبزّار ، ورفعه البزّار في رواية له ، والأرجح أَنَّهُ موقوف على أبي سعيد . انظر : تفسير الطبري ٢٠/٨٠ ، البداية والنهاية ١/٢٢٧ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٩٠ .

قبل نزول التوراة من الأمم بالأخذات الزائدة ، وهي ما أوقعه اللّه بهم من المَثُلاَت ، يقول ابن تَيْمِيَّة : ((بعد موسى لم يهلك المكذِّبين بعذاب الاستئصال ، وبعد نوح لم يهلك جميع النّوع)) (٦٩) .

والثّاني : عصمة المسلمين خاصّة من المَثُلاَت ؛ فقد تظاهرت النّصوص في الدلالة على حفظ المسلمين من المَثُلاَت ، ومن ذلك (٧٠) ما رواه أحمد بسنده عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ مرفوعًا : ((سَأَلْتُ رَبِّي ـــ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـــ ثَلاثَ خِصَالٍ فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً ؛ سَأَلْتُ رَبِّي ـــ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـــ ألاَّ يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيـــهَا ... الحديث)) (٧١) ، يقول ابن حجر : ((دخل في قوله : بما عذّب به الأمم قبلهم الغرق ؛ كقوم نوح وفرعون ، والهلاك بالرِّيح ، كعاد ، والخسف ؛ كقوم لوط وقارون ، والصيحة كثمود وأصحاب مدين ، والرّجـــــم كأصحاب الفيـــــل ، وغير ذلك ممّا عذّبت به الأمم عمومًا)) (٧٢) .

ويمكن الجواب عن هذين الإشكالين بأنَّ ما انقطع من المَثُلاَت إنَّما هو المَثُلاَت الَّتي تعمّ الأمّة بأسرها ، وأَمَّا الَّتي تحصل لطائفةٍ منها فهي باقية إلى يوم القيامة ؛ ولهذا أهلك اللّه بعد نزول التوراة كثيرًا من المكذِّبين ؛ كأصحاب السّبت ، وأصحاب القرية ،

---

(٦٩) النبوّات ٢٠٩/١ . وانظر : تفسير ابن كثير ٣٩٠/٣ .

(٧٠) انظر لمزيد من النّصوص : صحيح البخاريّ : كتاب التّفسير ، باب قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ١٦٩٤/٤ ، صحيح مسلـــــم : كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض ٢٢١٦/٤ ، مجمع الزوائد للهيثمي ٢٢٤/٧ ـــ ٢٢٧ .

(٧١) المسند ١٠٩/٥ . والحديث صحّحه الترمذي وأقرّه ابن كثير والألبـــاني . انظر : تفســـــير ابن كثير ١٤١/٢ ، صفة صلاة النّبيِّ ﷺ للألباني ص٦٩ .

(٧٢) فتح الباري ٢٩٣/٨ .

وأصحاب الفيل . وقد استفاض في الأخبار وقوع شيء من المَثُلاَت في أمّة محمَّد ﷺ ، روى الإمام أحمد بسنده عَنْ صُحَارٍ الْعَبْدِيِّ ﷺ مرفوعًا : ((لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْسَفَ بِقَبَائِلَ ؛ فَيُقَالُ : مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلانٍ ؟)) (٧٣) ، وروى ابن ماجه بسنده عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ مرفوعًا : ((لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا ، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ)) (٧٤) يقول ابن القيّم : ((تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمّة ، وهو مقيّد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء ، وشاربي الخمور)) (٧٥) .

وممّا يدلّ على صحّة الجواب تقييد المَثُلاَت في الأحاديث بما يدلّ على الخصوص؛ كقبائل ، وأناس ، وطائفة ، وأقوام ، وكذلك ما ورد من حفظ الأمّة من موجب المَثُلاَت العامّة ؛ وهو الإطباق على الكفر ، أو الكفر صفقةً واحدة (٧٦) ؛ فلا يزال منهم طائفة على الحق حتّى يأتي أمر اللّه وهم كذلك ، ولا يزال منهم التائبون

(٧٣) المسند ٤٨٣/٣ . وقد ذكر ابن حجر أنَّ إسناده صحيح . انظر : فتح الباري ٢٩٢/٨ .

(٧٤) سنن ابن ماجه : كتاب الفتن ، باب العقوبات ، ح (٤٠٢٠) . قال ابن القيّم : هذا إسناد صحيح . انظر : إغاثة اللهفان ٣٨٢/١ ، صحيح الجامع الصَّغير للألباني ٩٥٩/٢ .

(٧٥) إغاثة اللهفان ٣٩٠/١ .

(٧٦) انظر : إغاثة اللهفان ٣٨٢/١ ــ ٣٩١ ، صحيح الجامع الصَّغير للألباني ٩٦٠/٢ .

والدّليل على حفظ الأمّة من الإطباق على الكفر ما رواه مسلم بسنده عن ثوبان مرفوعًا : ((لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)) صحيح مسلم : كتاب الإمارة ، باب قوله : لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ ٢٦٦٧/٦ ، وروى الطّبراني بإسناد رجاله ثقات عن أبي هريرة مرفوعًا : ((سألتُ ربّي لأمّتي أربع خلال فمنعني واحدة ، سألته ألاّ تكفر أمّتي صفقة واحدة فأعطانيها ...)) الحديث ، مجمع الزوائد ٢٢٥/٧ .

والمستغفرون ، وهو أمان باقٍ في أمّة محمَّد ﷺ إلى يوم القيامة [٧٧] ، قال تعالى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : ٣٣] ، وقال : { وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا } [هود : ٣] ، يقول القرطبي : ((هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ؛ أي يمتعكم بالمنافع من سعة رزق ، ورغد عيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم)) [٧٨] .

والقول بعصمة الأمّة من المَثُلاَت العامّة دون الخاصّة بفئام أو طوائف هو القول المطّرد مع النّصوص الثابتة ، وهو أولى من قول من غلّب نصوص العصمة ، وقال : إِنَّ اللّه قضى بتأخير العقوبة عن هذه الأمّة إلى يوم القيامة [٧٩] .

المطلب الثّالث : أنواع المَثُلاَت

تمهيـــد :

اكتفى الرّاسخون من علماء السّلف في تعريف المَثُلاَت بذكرها ، أو ذكر بعض أنواعها ، يقول ابن عبَّاس ـــ رضي اللّه عنهما ـــ : ((المَثُلاَت ما أصاب القرون الماضية من العذاب)) (٨٠) ، ويقول الشعبي : ((القردة والخنازير هي المَثُلاَت)) [٨١] ؛ وذلك لأَنَّ معرفة أنواع المَثُلاَت ، وصورة ما جرى لكلّ أمّة من الأخذات الفذّة بالعقوبة أعظم بيانًا من التحديد النظري المجرّد ، وهذا يقتضي عرض صور موجزة لبعض المَثُلاَت لمعرفة

(٧٧) انظر : تفسير الطبري ٢٣٦/٩ .

(٧٨) انظر : تفسير القرطبي ٤/٩ .

(٧٩) انظر : تفسير القرطبي ٢٨٤/٩ .

(٨٠) الدرّ المنثور للسيوطي ٤٤/٤ .

(٨١) تفسير الطبري ١٠٦/١٣ .

البعد الواقعي لما تدلّ عليه من الشدّة والشهرة والاستئصال والاطّراد وغير ذلك من المعاني ، وسيكون ذلك من أكثر المَثُلاَت ذكرًا في القرآن وهي الغرق ، والرّيح ، والصيحة ، والائتفاك ، والخسف ، والمسخ ، وقد قرن معظم هذه المَثُلاَت أو معظم من حلّت به في موضع واحد ؛ قال تعالى : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا } [العنكبوت : ٤٠] ، وقال : { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج : ٤٢ ــ ٤٤] .

مثلة الغرق :

حلّت هذه المَثُلة بقوم نوحٍ ؛ فقد أغرقوا على وجه خارج عن المعهود ، وذلك أَنَّ اللّه تعالى أرسل عليهم مطرًا لم تعهد الأرض مثله ؛ فكان ينصبّ من أبواب السماء كأفواه القرب خلافًا لما يعهد في كثرة المطر ونزوله من السّحاب لا من السماء . وكذلك أمرت الأرض فنبعت من جميع أنحائها حتَّى من التنانير الَّتي هي محال النّار ، فكثر الماء حتَّى علا رؤوس الجبال (٨٢) ، وعمّ الطوفان الأرض فأهلك من عليها إلاَّ نوحًا ومن معه في السفينة من المؤمنين (٨٣) وأصناف المخلوقات (٨٤) ، قال تعالى : { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ

(٨٢) اختلف المفسّرون في مقدار ارتفاع الماء على أعلى جبل بالأرض ؛ فقيل خمسة عشر ذراعًا ، وقيل ثمانين انظر : البداية والنهاية ١١٢/١ ، تفسير ابن كثير ٤٤٦/٢ .

(٨٣) اختلف العلماء في عدّهم ؛ فقيل : كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم ، وقيل : اثنين وسبعين ، وقيل : كانوا عشرة ، وقيل غير ذلك ، والظّاهر أَنَّ التّحديد ممّا تنوقل عن أهل الكتاب ؛ فاللّه أعلم بعدّهم . انظر : البداية والنهاية ١١١/١ ، ١١٢ ، تفسير ابن كثير ٢٢٤/٢ ، ٤٤٥ .

(٨٤) انظر : تفسير ابن كثير ٢٢٣/٢ ، ٤٤٥ ــ ٤٥٠ ، ٢٦٣/٤ ــ ٢٦٥ ، ٤٢٦ ــ ٤٢٨ ، البداية والنهاية ١٠٥/١ ــ ١١٩ .

مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً (٨٥) وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : ١١٩ ـ ١٢١] .

وكذلك حلّت مثلة الغرق بفرعون وجنوده ؛ فحين أذن اللّه لموسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر سار بهم ليلاً حتَّى انتهى بهم السَّير إلى سيف بحر القلزم فأدركهم فرعون ومن معه وقت الشروق ، فلمّا تراءى الجمعان ، وظنّ أصحاب موسى أنَّهُم مدركون أوحى اللّه إلى موسى : { أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء : ٦٣] ؛ أي صارت كلّ قطعةٍ انفصلت من البحر كالجبل الكبير المنيف ، وأرسل اللّه الرّيح فلفحت ما في طريقهم من حال البحر (٨٦) حتَّى صار يابسًا كوجه الأرض ، وأوحى اللّه إلى موسى أن يجوز ببني إسرائيل لا يخاف دركًا من فرعون ولا يخشى زلقًا في البحر أو غرقًا ، فلمّا اجتازوه أمر موسى أن يترك البحر رهوًا ؛ ليدخل فرعون وجنوده ، وحين تمّ دخولهم ، وهمَّ أوّلهم بالخروج أوحي لموسى: فضرب البحر بعصاه ، فانطبق عليهم وأهلكهم اللّه أجمعين (٨٧) ، قال تعالى : { وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

---

(٨٥) أي في الإنجاء والإهلاك لا في الإهلاك خاصّة ؛ فقد كان الإنجاء بطريقة خارجةٍ عن المعهود ، بل إنَّ ابن كثير ذكر أَنَّ عظمة سفينة نوح كانت خارجةً عن المعهود أيضًا ، فلم يكن لها نظير قبلها ، ولا يكون بعدها مثلها ، ثُمَّ ذكر ما قاله بعض علماء السّلف عن أصلها ، وطولها ، وعرضها ، وارتفاعها ، وطبقاتها ، ومدّة بقاء نوح ومن معه فيها . وما ذكره من خروج السفينة عن المعهود أمر محتمل ، وبخاصّة أَنَّ الفلك كان مشحونًا ؛ أي مملوأً بأصل كلّ ما بقي من المخلوقات ، ولكن ما نقله من التحديد ينبغي التوقّف في شأنه ؛ إذ لا دليل عليه من شرعنا ، وإنَّما هو ممّا تلقي عن أهل الكتاب . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٠٩/١ ، ١١٠ ، ١١٧ ، تفسير ابن كثير ٤٤٨/٢ ، ٤٤٩ .

(٨٦) الحال هو الطين الأسود كالحمأة . انظر : النهاية لابن الأثير ٤٦٤/١ .

(٨٧) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٢٦٨/١ ـ ٢٧٥ ، تفسير ابن كثير ٤٢٩/٢ ـ ٤٣٢ ، ١٦٠/٣ ، ٣٣٥ ـ ٣٣٨ ، ١٤١/٤ .

مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : ٦٥ ــ ٦٧] .

مثلة الرّيح :

حلَّت هذه المَثُلة بعادٍ الأولى [٨٨] ؛ فقد أهلكوا بريح الدّبور ، وسلّطت

(٨٨)ذكرت صفة عادٍ هذه في سورة النّجم ، وقد اختلف العلماء في معناها ؛ فالجمهور على أنَّها قيد لبيان أنَّهُم في وجه الدهر وقديمه ، ولا دلالة لمفهومه على عادٍ ثانية . انظر : تفسير الطبري ٧٨/٢٧ ، تفسير ابن عطيّة ٢٠٨/٥ ، تفسير القرطبي ١٢٠/١٧ ، روح المعاني للآلوسي ٧٠/٢٧ .

وذهب آخرون إلى أَنَّ هذه الصِّفة تدلّ بمفهومها على عاد ثانية . ثُمَّ اختلفوا في المراد بها وبالأولى على أربعة أقوال : ــ

١ ــ أَنَّ المراد بعاد الأولى عاد إرم ، وهم قوم هود ، والثانية من بقي من نسلهم ؛ وهم بنو لقيم بن هزال ، فقد كانوا سكّانًا بمكّة مع أخوالهم من العمالقة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم ، ثُمَّ إنّهم هلكوا ببغي بعضهم على بعض ، وتفانوا بالقتل . وهذا اختيار الطبري ومن وافقه . انظر : تفسير الطبري ٧٨/٢٧ ، تفسير البغوي ٢٥٦/٤ .

٢ ــ أَنَّ المراد بعاد الأولى قوم هود ، والثانية قوم صالح ؛ وهم ثمود ؛ فإِنَّ كلاً من القبيلتين تسمّى عادًا؛ لأَنَّ جدّهم واحد ؛ وهو عاد بن إرم بن سام بن نوح . وهذا قول ابن إسحاق ، والمبرد . انظر : تفسير ابن عطيّة ٢٠٨/٥ ، تفسير القرطبي ١٢٠/١٧ ، تفسير الجلالين ١٨٥/٤ ، روح المعاني ٧٠/٢٧ .

٣ ــ أَنَّ المراد بعاد الأولى من كان قبل قوم هود من نسل عاد ، والثانية هم قوم هود . وهذا قول كعب بن الأحبار ، وما يفهم من كلام ابن جريج . انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٨٤/٨ ، الدر المنثور للسيوطي ١٣١/٦ .

٤ ــ أَنَّ المراد بعاد الأولى قوم هود ؛ وهم الَّذين ذكروا في جميع المواضع إلاَّ سورة الأحقاف ؛ فإن ما ذكر فيها خبر عن عاد الثّانية . وهذا ما جنح إليه ابن كثير في تاريخه ؛ اعتمادًا على ما ورد في قصّة إهلاكهم من أشعار لا تشبه كلام المتقدّمين ، ومن ذكر لمكّة مع أنَّها لم تبن إلاَّ بعد الخليل ، وكذلك ما ذكر في صفة إهلاكهم ؛ فإنَّهم أهلكوا بعارض فيه شرر ونار ، وأولئك أهلكوا بريح صرصر عاتية ؛ ولأنّ النَّبيَّ

=

عليهم على وجه خارج عمّا يعهد في ذات الرِّيح وآثارها ؛ فكانت منقطعة النّظير في شدّة هبوبها ، وقوّة بردها ، وحدّة صوتها ، واستمرارها عليهم ليلاً ونهارًا ، لا تسكن أو تهدأ ؛ وإنَّما تفسد وتحصب ، وتتبعهم في كلّ مكان حتَّى في البيوت والحفر والشعاب وكهوف الجبال ، فتنتزعهم من الأرض انتزاعًا ، وترفعهم حتَّى يغيبوا عن الأبصار ، ثُمَّ تنكسهم فتثلغ رؤوسهم ، وتفصلها عن أجسادهم ، حتَّى تركتهم صرعى بلا رؤوس { كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ } [القمر : ٢٠] ؛ أي كأصول النخل في طولها ، وانقلاعها من أصلها ، وسقوطها على الأرض بلا رؤوس .

وقد استمرّت بهم هذه المَثُلة سبع ليالٍ وثمانية أيّام كاملة حتَّى قطعت دابرهم ، وأبادت خضراءهم ؛ جزاء كبرهم ، وشركهم بربّهم ، وتكذيبهم لنبيّهم [٨٩]، قال تعالى:

=

ﷺ فرّق بين العذابين في قوله : ((عُذِّبَ قَوْمٌ بالرِّيحِ ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا : (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا))) [صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري : كتاب التّفسير ، باب فلمّا رأوه عارضًا ٥٧٨/٨ ح (٤٨٢٩)] ؛ فهذا كالصريح في تغاير القصّتين . انظر : البداية والنهاية ١٢٨/١ ــ ١٣١ .

وهذا يخالف ما أطبق عليه المفسِّرون من أَنَّ المراد بما في سورة الأحقاف عاد الأولى ، وأنَّ أخاهم هو هود عليه السلام ، وأيضًا فإنَّ الخبر الَّذي اعتمده غير صحيح ، وما ذكر في ثناياه من شعر وخبر عن مكّة من جملة الأمور الَّتي تدلّ على ضعفه كما نبّه على ذلك ابن عطيّة [انظر : المحرّر الوجيز ٢٠٨/٥] . وأَمَّا الحديث فالظّاهر أَنَّهُ خبر عن مخبر واحد ، والعطف لتغاير الأحوال لا الذوات ؛ فحين رأوا العذاب قالوا : هذا عارض ممطرنا ، ثُمَّ حلّ بهم خلاف ما توقّعوا ، وعذّبوا بالرّيح ، والآية صريحة في ذلك : { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الأحقاف : ٢٤] .

(٨٩) انظر : تفسير ابن كثير ٢٢٤/٢ ــ ٢٢٧ ، ٤١٣/٣ ، ٩٤/٤ ، ٩٥ ، ١٦٠ ــ ١٦٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٤١٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١ ــ ١٣١ ، حاشية الصاوي على الجلالين ١٩١/٤ .

{ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ } [الحاقّة : ٦ ــ ٨]

مثلة الصيحة :

أصابت هذه المَثُلة قوم ثمود ، وأهل مدين ، وأصحاب القرية [٩٠] . أما ثمود فإنّهم لّما كذّبوا صالحًا ، وعقروا الناقة ، وانقضت أيّام النظرة ، أهلكوا صباح اليوم الرّابع بصيحة من السماء ؛ وهي صاعقة واحدة طاغية ، تجاوزت المعهود في الصواعق ، فرجفت من شدّتها الأرض ، وأحرقت نارها جميع المكذّبين ، ولم يبق من أجسادهم النضرة إلاَّ فتات كالهشيم [٩١]، قال تعالى : {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ } [القمر : ٣١] ، يقول الأزهريّ : ((من قرأ المحتظِر أراد كالهشيم الَّذي جمعه صاحب الحظيرة ، ومن قرأ المحتظَر ، بفتح الظاء ، فالمحتظر اسم للحظيرة ؛ المعنى : كهشيم المكان الَّذي يحتظر فيه الهشيم ؛ والهشيم ما يبس من الحظرات فارفتّ وتكسّر ؛ المعنى أَنَّهُم بادوا ، وهلكوا ، ، فصاروا كيبيس الشجر إذا تحطّم)) [٩٢] .

ويفهم ممّا تقدّم آنفًا أَنَّ ما حلَّ بثمود كان نوعًا واحدًا من المَثُلاَت وإن ذكر في

---

(٩٠) عــوقب بالصيحة أقوام آخرون سوى من ذكر ؛ كالسبعين الَّذين اختارهم موسى عليه السلام من بني إسرائيل لميقات ربّه ، وكالذين خرجوا من ديارهم ألوفًا حذر الموت ، ولكن عقوبتهم لا تحمل السمات الكاملة للمــثلات لا من جهة الموجب ولا من جهة الاطّراد ، فلم تكن عقوبتهم على الكفر ، ولم تتّصل بعقاب الآخرة ، فقد أحياهم اللّه بعد إهلاكهم ، وكان في ذلك زجرًا لهم ، ودليلاً عيانيًا على المعاد ، وعلى أَنَّ الحذر لا يغني من القدر . انظر : تفسير ابن كثير ٩٣/١ ، ٩٤ ، ٢٩٨ ، ٥٧٢ ، ٢٤٩/٢ ، ٢٥٠ .

(٩١) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٢/٧ ، تفسير ابن كثير ٢٢٧/٢ ــ ٢٣٠ ، ٩٥/٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ ، ٤١٢ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٣٠/٨ ــ ١٣٩ .

(٩٢) تهذيب اللّغة للأزهري ٨٥٧/١ . وانظر : تفسير القرطبي ١٤٢/١٧ ، تفسير ابن كثير ٢٦٥/٤ .

القرآن بثلاثة أسماء ؛ هي الصيحة ، والصاعقة ، والرّجفة ؛ لأَنَّ مَعْنَى هذه العبارات يرجع إلى شيء واحد ؛ فقد أرسلت عليهم صيحة واحدة كانت عبارة عن صاعقة هائلة ذات صوت مهلك ، ونار تحرق ، ولشدّة الصّاعقة وهولها رجفت بهم الأرض من تحتهم؛ فاجتمع فيها أنَّها صيحة ، وصاعقة ، ورجفة . وهذا أولى من القول بأنَّ الرّجفة عقوبة مستقلّة عن الصيحة ، وأنَّ اللّه جمع لهم بين عقوبتين ؛ لأَنَّ الظَّاهر أَنَّ العقوبة واحدة ، وأنَّ الرجفة ناشئة عن الصيحة الصاعقة لا مستقلّة عنها (٩٣) .

وأَمَّا أهل مدين (٩٤) فإنَّهم لما فشا فيهم الشرك ، والغشّ في المعاملة ، وقطع الطّريق على المجتازين أرسل اللّه لهم شعيبًا عليه السلام يأمرهم بالتوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، وعمّا هم عليه من قبيح الخلال ، فكذّبوه ، وآذوه ، واستعجلوا عذاب اللّه ونقمته ، فأرسل عليهم صيحة خارجة عن المعهود ، رجفت من شدّتها الأرض ، { فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : ٩٤] ؛ أي هلكى ، قد أسقطهم العذاب على صدورهم ، فتلبدوا بالأرض (٩٥) ، يقال : جثم الإنسان ، أو الطائر إذا لزم مكانه فلم يبرح ، أو وقع على صدره ، أو تلبّد بالأرض ، أي التصق بها التصاقًا شديدًا (٩٦) . وهذا المعنى يطابق صورة ما أصابهم مطابقةً كاملة ؛ فإنَّهم عذّبوا بالصّيحة ، وكانت صاعقةً

(٩٣) انظر : تفسير ابن كثير ٩٥/٤ ، البداية والنهاية ١٣٦/١ ، أضواء البيان للشنقيطي ١٢٨/٧ ، ١٢٩ .

(٩٤) هي قرية في أطراف الحجاز الشاميّة على مقربة من تبوك ، وليست هي كما يشيع بين النَّاس ، اشتهرت القبيلة الَّتي سكنتها باسمها ، وأصبح الاسم يقال بالاشتراك على القبيلة والقرية ، ويحتمل أن تكون القرية سمّيت باسم الجدّ الأعلى للقبيلة ؛ وهو مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٨٤/١ .

(٩٥) انظر : البداية والنهاية ١٨٣/١ ــ ١٩١ .

(٩٦) انظر : تهذيب اللّغة للأزهري ٥٣٩/١ ، ٣٢٢٧/٤ ، القاموس المحيط ٣٤٦/١ ، ٨٨/٤ ، المعجم الوسيط ص٨١٢ .

على الأرجح [٩٧] ؛ أوقعتهم على صدورهم ، والنار تشتعل في أجسادهم حتَّى صاروا رمادًا لابدًا بالأرض . وهذا هو عذاب يوم الظلّة المذكور في قوله تعالى : { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الشعراء : ١٨٩] ؛ فإنَّ الظلّة هي السّحابة الَّتي أظلّتهم بالعذاب ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُم لَّما سلّط عليهم الحرّ حتَّى ما يظلّهم منه شيء، أنشئت لهم سحابةٌ تحتها برد وراحة ، فأتوها ، فلمّا أظلّتهم جميعًا صيح بهم ، ورجفت بهم الأرض ، وأحرقتهم نار الصاعقة حتَّى صاروا رمادًا لاصقًا بالأرض . ذكر ذلك ابن عمر وابن عبَّاس وسعيد بن جبير وغيرهم على اختلاف بينهم في التّفاصيل [٩٨]

والقول بأنَّ صفة عذاب مدين كانت على هذا النَّحو مبنيّة على مذهب الجمهور في اعتبارهم هم وأصحاب الأيكة أمّة واحدة ؛ لأَنَّ الخبر عنهم وعن رسولهم متماثل ، وإنَّما نسبوا إلى القرية أو القبيلة مرّة ، ونسبوا مرّة أخرى إلى الأيكة ؛ وهي الشجرة ، أو الغيضة [٩٩] الَّتي كانوا يعبدونها من دون اللّه [١٠٠] .

وذهب بعض علماء السّلف إلى أَنَّ مدين وأصحاب الأيكة أمّتان مختلفتان ، وأنَّ شعيبًا عليه السلام بعثه اللّه مرّتين ، يقول ابن عمر : ((إنَّ قوم مدين وأصحاب الأيكة أمّتان ،

(٩٧) بدليل قوله تعالى : { أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } [هود : ٩٥] ؛ فجعل عقوبتهم كعقوبة ثمود، وعقوبة ثمود كانت صاعقة كما نصّ على ذلك في القرآن ؛ ولهذا كان مآلهم متماثلاً ، كما قال تعالى : { فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [هود : ٦٧ ، ٩٤] ، وهذا في حقّ كلتا الطائفتين ؛ أي ساقطين على وجوههم ، لابدين بالأرض ؛ لأَنَّهم سقطوا والنار مشتعلة في أجسادهم حتَّى صاروا فتاتًا لاصقًا بالأرض ، فالعقوبة واحدة ، ولهذا كان الأثر متماثلاً .

(٩٨) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ١٥٤/٤ ، تفسير القرطبي ١٣٧/١٣ ، تفسير ابن كثير ٣٤٦/٣ .

(٩٩) الغيضة هي الشجر الملتفّ . انظر : النهاية لابن الأثير ٤٠٢/٣ .

(١٠٠) انظر : تفسير الطبري ١٠٧/١٩ ، تفسير ابن كثير ٢٣١/٢ ، ٣٤٥/٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٩٠/١ ، فتح الباري لابن حجر ٤٥٠/٦ ، الإتقان للسيوطي ١٧٧/٢ .

بعث اللّه إليهما شعيبًا النبيّ ﷺ)) [١٠١]، ويقول عكرمة : ((ما بعث اللّه نبيًّا مرّتين إلاَّ شعيبًا ؛ مرّة إلى مدين ، فأخذهم اللّه بالصّيحة ، ومرّة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم اللّه بعذاب يوم الظلّة)) [١٠٢] ، ويقول ابن زيد : ((بعث اللّه شعيبًا إلى قومه من أهل مدين، وإلى أهل البادية ؛ وهم أصحاب ليكة)) [١٠٣]، ويؤثر نحوه عن قتادة ومقاتل [١٠٤] .

وعمدتهم في التفريق دليلان :.

أحدهما : قوله تعالى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا } [هـود : ٨٥] ، وقوله : { كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ } [الشعراء : ١٧٦ ، ١٧٧] ؛ فوصف شعيبًا بأَنَّهُ أخ لمدين بخلاف أصحاب الأيكة ؛ لأَنَّهُ لم يكن منهم وإنَّما كان من أصحاب مدين ، فدلّ على الفرق ، وأنَّهُم أمّتان مختلفتان [١٠٥] .

وقد أجاب ابن الجوزي بأَنَّهُ لم يذكر الأخ مع أصحاب الأيكة تخفيفًا [١٠٦] . وأجاب ابن كثير وابن حجر بأَنَّهُ لم يذكر الأخ لأَنَّ نسبتهم للأيكة نسبة دينيّة فقطع

---

(١٠١) نقـلاً عن تفسير ابن كثير ٣٤٥/٣ ، ويروى مرفوعًا ، والأشبه أَنَّهُ موقوف ، وإسناده ليس بالقوي . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٩٠/١ ، الإتقان للسيوطي ١٧٧/٢ .

(١٠٢) نقلاً عن تفسير ابن كثير ٣٤٥/٣ ، وانظر : الإتقان للسيوطي ١٧٧/٢ .

(١٠٣) نقلاً عن تفسير الطبري ١٠٧/١٩ ، وانظر : تفسير القرطبي ١٣٥/١٣ .

ولـيكة والأيكـة بمعـنى . انظر : تفسير الطبري ١٠٧/١٩ ، صحيح البخاريّ بشرحه فتـح الباري ٤٤٩/٦ .

(١٠٤) انظر : تفسير الطبري ٤٨/١٤ ، زاد المسير لابن الجوزي ١٤١/٦ ، تفسير القرطبي ١٣٥/١٣ .

(١٠٥) انظـر : زاد المسير لابـن الجوزي ١٤١/٦ ، تفسير القرطبي ١٣٥/١٣ ، تفسير الجلالين بحاشية الصاوي ٢٢٣/٣ .

(١٠٦) انظر : زاد المسير ١٤١/٦ .

الأخوّة بينهم ، بخلاف الآية الأولى ؛ فإن النسبة نسبيّة ؛ ولهذا أثبت الأخوّة بينهم [(١٠٧)] . وهذا هو الأولى ، والأليق ببلاغة القرآن .

والثاني : أن اللّه عاقب أصحاب مدين بالصّيحة والرّجفة ، وعاقب أصحاب الأيكة بيوم الظلّة ، واختلاف العقوبة دليل على أَنَّهُمَا أمّتان مختلفتان [(١٠٨)] .

وهذا غير مسلَّم ؛ لأَنَّ تنوّع العقوبة لا يستلزم اختلاف المعاقبين ؛ وإلاّ للزم أن يكون المعذّبون بالصّيحة غير الَّذين عذّبوا بالرّجفة ، وهذا لا يقوله أحد . والصَّواب أَنَّ عقوبتهم واحدة ، إذ الصيحة الَّتي عذّبوا بها كانت عبارة عن صاعقة هائلة محرقة ، أرسلت عليهم من السحابة الَّتي أظلّتهم فرجفت بهم الأرض من تحتهم ، وإنَّما اختلف التعبير عن عقوبتهم مراعاةً لسياق الكلام ؛ يقول ابن كثير : ((ذكر اللّه صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن ؛ كلّ موطن بصفة تناسب ذلك السياق ؛ ففي الأعراف ذكر أَنَّهُم أخذهم الرّجفة ؛ وذلك لأَنَّهم أوعدوا شعيبًا وأصحابه بإخراجهم من قريتهم ؛ فقابل الإرجاف بالإرجاف ، وذكر أَنَّهُم رجفت بهم الأرض الَّتي أرادوا إخراج نبيّهم منها . وفي سورة هود ذكر عذابهم باسم الصيحة ؛ لأَنَّهُ ذكره عقب ذكر تهكّمهم ، واستهزائهم بنبيّهم ، فناسب أن يذكر الصيحة الَّتي أسكتتهم عن كلامهم القبيح .

وفي سورة الشعراء ذكر عذابهم باسم عذاب يوم الظلّة ؛ لأَنَّهُ ذكره في سياق ما كانوا يسألونه نبيّهم تعنّتًا وعنادًا من أن ينـــزل عليهم قطعًا وعذابًا من السماء ، فذكر

---

(١٠٧) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١/١٩٠ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٤٥ ، فتح الباري لابن حجر ٦/٤٥٠ .

(١٠٨) انظر : تفسير الطبري ١٤/٤٨ ، البداية والنهاية لابن كثير ١/١٩٠ ، فتح الباري لابن حجر ٦/٤٥٠.

عذابهم بما يناسب سؤلهم)) [١٠٩] .

وكذلك أصابت الصيحة أصحاب القرية ، فقد أرسل اللّه لهم ثلاثةً من رسله ، فكذّبوهم ، وعزموا على قتلهم ، فحذّرهم رجل صالح منهم [١١٠] عاقبة فعلهم ونصحهم باتباع هديهم ، فردّوا نصيحته أقبح رد ، وقتلوه قتلة ضرب بشدّتها المثل [١١١] ؛ قال ابن مسعود : ((وطئوه بأرجلهم حتَّى خرج قصبه من دبره)) [١١٢] ، وقال قتادة : ((كانوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومي ، اللّهم اهد قومي ، حتَّى أقعصوه [١١٣] وهو كذلك)) [١١٤] ؛ ولهذا عاجلهم اللّه بعقوبته ، وأهلكهم بصيحة واحدة ، لم تبق منهم باقية . وقد ذكر كثير من المفسِّرين صفة ما حلَّ بهم من المَثُلة ؛ فقالـــوا : إنَّ اللّه تعالى بعث إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضـــادتي باب بلدهـــم ، ثُمَّ صـــاح فيهم { صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِـــدُونَ } [١١٥] [يس : ٢٩] ؛ أي موتى لاطئون

(١٠٩) تفسير ابن كثير ٣٤٦/٣ [بتصرّف] . وانظر : البداية والنهاية ١٨٩/١ ، ١٩٠ ، فتح الباري لابن حجر ٤٥٠/٦ .

(١١٠) ذكـــر كـــثير من المفسِّرين أَنَّهُ حبيب النجّار ، وقيل غير ذلك . انظر : تفسير الطبري ١٥٨/٢٢ ، ١٥٩ ، تفسير البغوي ٧/٤ ، تفسير القرطبي ١٧/١٥ .

(١١١) ضربه النَّبيُّ ﷺ لما فعله أهل الطائف بعروة بن مسعود ، وضربه كعب الأحبار لما فعله مسيلمة بحبيب بن زيد بن عاصم ؛ فكلاهما كان مثله كمثل صاحب ياسين . انظر : تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ .

(١١٢) تفسير الطبري ١٦١/٢٢ . وفي القرطبي زيادة نصّها : ((وألقي في بئر ، وهي الرس ، وهم أصحاب الرس)) . تفسير القرطبي ١٩/١٥ .

(١١٣) القعص أن يضرب الرّجل فيموت مكانه ، يقال : قعصته وأقعصته إذا قتلته قتلاً سريعًا . النهاية لابن الأثير ٨٨/٤ .

(١١٤) تفسير الطبري ١٦٠/٢٢ ، ١٦١ .

(١١٥) انظر : تفسير البغوي ١١/٤ ، تفسير القرطبي ٢٠/١٥ ، تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ .

بالأرض [١١٦] . وفي التعبير عن موهم بالخمود دليل على أَنَّ الصيحة أحرقتهم حتَّى صاروا رمادًا . وقد حمل بعض المفسِّرين هذا التعبير على التَّشْبيه ؛ يقول ابن عطيَّة : ((شبّهوا بالرماد الَّذي خمدت ناره وطفئت)) [١١٧] . والظَّاهر أَنَّ التعبير عن موهم بالخمود على حقيقته ؛ وأنَّ الصيحة الَّتي عذّبوا بها كانت عبارة عن صاعقة أحرقتهم حتَّى صارت أجسادهم رمادًا لابدًا بالأرض ، وهذا ما يشعر به ظاهر القرآن ، وما تدلّ عليه أخباره عن نظرائهم ؛ وهم ثمود ومدين ، وبهذا يظهر ضعف القول بأنَّ الصيحة صدرت عن جبريل عليه السلام ، وبخاصّة أَنَّهُ قول لا دليل عليه من شرعنا ؛ فيحتمل أن يكون من أخبار أهل الكتاب الَّتي في شرعنا ما يشعر بخلافها .

وقد ذكر اللّه تعالى خبر هؤلاء الأشقياء دون أن يعيّن مكانهم أو زمانهم ، ولكن ذكر كثيرٌ من علماء السّلف والخلف أَنَّهُم أهل انطاكية [١١٨] ، وادّعى بعضهم الإجماع على ذلك [١١٩] ! وذكر قتادة وابن جريج أَنَّ رسلهم كانوا من الحواريين الَّذين بعثهم عيسى عليه السلام دعاةً إلى اللّه في الآفاق ، وإنَّما أضافهم الربّ لنفسه ؛ لأَنَّ عيسى أرسلهم

---

(١١٦) انظر : تفسير ابن عطيَّة ٤/٤٥٢ .

(١١٧) تفسير ابن عطيَّة ٤/٤٥٢ . وانظر : تفسير القرطبي ١٥/٢٢ ، تفسير أبي السعود ٤/٣٨٢ ، روح المعاني ٢٣/٢ .

(١١٨) انظر : تفسير الطبري ٢٢/١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٣/٢ ، تفسير البغوي ٤/٧ ، البداية والنهاية ١/٢٢٧ تفسير ابن كثير ٣/٥٦٩ .

(١١٩) انظر : تفسير القرطبي ١٥/١٤ ، روح المعاني للآلوسي ٢٢/٢٢٠ .

وفي دعوى الإجماع نظر ؛ فإنَّ بعض علماء السّلف لم يعيّن القرية . وقال عكرمة : إنَّ أصحاب ياسين هم أصحاب الرسل بفلج ، وفلج من قرى اليمامة . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١/٢٢٧ ، تفسير ابن كثير ٣/٥٧٠ .

بأمر اللّه تعالى [١٢٠] . وفي هذا التعيين نظر من ثلاثة أوجه : ــ

١ ــ أن ظاهر القرآن يدلّ على أَنَّ رسل هذه القرية كانوا من قبل اللّه لا من قبل المسيح ؛ فإنَّهم قالوا : { إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ } [يس : ١٤] ؛ فلو كانوا من الحواريين لقيّدوا الإرسال ولم يطلقوه ؛ ولهذا قال ابن عبَّاس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبّه : إنّهم كانوا رسلاً من عند اللّه تعالى بعثهم لأهل هذه القرية [١٢١] .

٢ ــ أن المعروف أَنَّ أهل إنطاكية آمنوا برسل المسيح عن آخرهم ؛ ولهذا كانت إنطاكية إحدى المدن الأربع الَّتي فيها بطاركة النصارى [١٢٢] ، ولم يعرف عن هذه المدينة أنَّها أهلكت بعامة ، لا في الملّة النصرانيّة ، ولا قبل ذلك ؛ ولهذا قال ابن حجر : ((لعلّها كانت مدينة بالقرب من هذه الموجودة ؛ لأَنَّ اللّه أخبر أَنَّهُ أهلك أهلها ، وليس لذلك أثر في هذه المدينة الموجودة الآن)) [١٢٣] ، وقال ابن كثير : ((على هذا يتعيّن أَنَّ هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير انطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السّلف .. ، أو تكون انطاكية إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه

---

(١٢٠) انظـــر : زاد المـــسير لابن الجوزي ١١/٧ ، تفسير ابن عطيّة ٤٤٩/٤ ، تفسير القرطبي ١٤/١٥ ، تفسير أبي السعود ٣٧٩/٤ .

(١٢١) انظر : تفسير الطبري ١٥٦/٢٢ ، زاد المسير لابن الجوزي ١١/٧ ، تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ .

(١٢٢) وهـــي القدس ، وانطاكية ، والإسكندريّة ، وروميّة ؛ فالقدس لأَنَّها بلد المسيح ، وإنطاكية لأَنَّها أَوَّل بلدة آمنت بالمسيح عن آخرها ، والإسكندرية لأَنَّهم اصطلحوا فيها على اتّخاذ البطاركة ، والمطارنة، والأســـاقفة ، والقـــساوسة ، والشمامـــسة ، والرهبان ، ورومية ؛ لأَنَّها بلد قسطنطين ؛ وهو الملك المشهور الَّذي نصر دينهم ، وأطده . انظر : تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ .

(١٢٣) فتح الباري ٤٦٧/٦ .

المشهورة ؛ فإنَّ هذه لم يعرف أنَّها أهلكت لا في الملّة النصرانيّة ، ولا قبل ذلك)) [١٢٤] .

٣- أن بعث الحواريين لإنطاكية كان بعد إنزال التوارة بمدّة طويلة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السّلف أَنَّ اللّه لم يهلك أمّة بعامّة بعد إنزال التوراة . وعلى هذا فإنَّ إهلاك أصحاب القرية كان قبل عيسى عليه السلام بمدّة ، وقد تفطّن لذلك الإمام البخاريّ ــ رحمه اللّه ــ ، وبوّب لخبرهم قبل خبر المسيح [١٢٥] .

مثلة الائتفاك :

المراد بالائتفاك الإنقلاب ؛ يقال : ائتفكت البلدة بأهلها ؛ أي انقلبت ، فهي مؤتفكة ، ومنه الإفك ؛ لما فيه من قلب للحقيقة [١٢٦] . وانقلاب البلدة بأهلها عذاب خارج عن المعهود أصاب سذوم [١٢٧] وأعمالها من قرى قوم لوط [١٢٨] ؛ فقد أهوى اللّه

---

(١٢٤) تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ ، ٥٧٠ .

(١٢٥) انظر : صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري : باب واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ٤٦٧/٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٧/١ ــ ٢٣٢ ، تفسير ابن كثير ٥٦٩/٣ ، ٥٧٠ .

(١٢٦) انظر : النهاية لابن الأثير ٥٦/١ .

(١٢٧) سذوم بالذال المعجمة على وزن رسول ؛ هي القرية العظمى من قرى لوط . وقد اختلف العلماء في تحديد أسماء القرى التابعة لسذوم ، وفي عددها ، وفي عدد سكّان قراهم بعامّة ؛ فقيل أربعمائة ألف وقيل غير ذلك . انظر : تفسير الطبري ٩٧/١٢ ، ٧٩/٢٧ ، تفسير القرطبي ٢٤٧/٧ ، ٨١/٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٨٢/١ ، تفسير ابن كثير ٤٥٥/٢ ، حاشية الصاوي على الجلالين ١٠٤/٢ ، روح المعاني للآلوسي ١١٢/١٢ .

(١٢٨) ذكر الرّازيّ أَنَّ خروج هذه المثلة عن المعهود من جهة قلب الأرض ورفعها ، ومن جهة إلقائها من البعد السحيق دون أن يصل أذى لما حولهم من القرى . انظر : تفسير الرّازيّ ٣٨/١٨ .

بديارهم مقلوبةً من السماء ، فقطع دابرهم ، ودمّر ديارهم [(١٢٩)] ؛ وذلك لما كانوا عليه من شدّة الكفر [(١٣٠)] ، حتّى إنَّهُ لم يستجب لنبيّهم رجل منهم ؛ ولما اجتمع فيهم من المنكرات العظيمة [(١٣١)] ، وبخاصّة ما ابتدعوه من إتيان الرّجال شهوة من دون النِّساء ، والاستعلان بذلك ؛ عُتُوًّا وتمرّدًا على ربِّ العالمين ، قال تعالى : { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [الذاريات : ٣٥ ، ٣٦] ، والمخرجون هم لوط وابنتاه ؛ إذ لم يكن على الإيمان في أمّته سواهم [(١٣٢)] ، وقال تعالى : { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } [النمل : ٥٤] ؛ أي يأتي بعضكم بعضًا بمحضر منكم دون حياء من فاعل أو نكير من ناظر [(١٣٣)] !

وقد ذكر اللّه في كتابه مثلة أخرى أصابت هؤلاء المجرمين ؛ هي الحصب والإمطار بالحجارة ، قال تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلا ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ } [القمر : ٣٤] ، وقال : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ } [هود : ٨٢] ؛ أي حجارة من طين نضّد وضمّ بعضه إلى

---

(١٢٩) أصبح مكانها في بلاد الغور بحيرة تعرف ببحيرة لوط ، أو البحر الميّت ؛ وهو أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر . وقد اكتشفت حديثًا آثار قراهم في هذا المكان . انظر : أطلس تاريخ الأنبياء والرّسل لأحمد المغلوث ص١٢٦ ، ١٢٧ .

(١٣٠) كانوا كفّارًا من جهة استحلال الفاحشة ، ومن جهة تكذيب الرسل ، ومن جهة الشّرك أيضًا كما نصّ على ذلك شيخ الإسلام ، والغريب أنَّهُ في موضع آخر ذكر أنَّ كفرهم من جهة استحلال الفاحشة لا من جهة الشرك ؛ ولهذا لم يذكّروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم . انظر : مجموع الفتاوى لابن تَيْمِيَّة ٢٤٩/١٦ ، كتاب النبوّات لابن تَيْمِيَّة ٢١٢/١ .

(١٣١) كقطع السبيل ، وخيانة الرّفيق ، والاجتماع على منكر القول والعمل حتَّى إنّهم كانوا يتضارطون في مجالسهم دون حياء من مجالسهم . انظر : البداية والنهاية ١٧٨/١ ، روح المعاني للآلوسي ١٠٥/١٢

(١٣٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٣٦/٤ ، البداية والنهاية ١٧٨/١ ، ١٨١ .

(١٣٣) انظر : تفسير القرطبي ٢١٩/١٣ ، تفسير ابن كثير ٣٦٨/٣ .

بعض حتَّى صار في غاية الشدّة والصلابة والقوّة [١٣٤] ، ويبدو أَنَّ الواحد منها كان دون ملء الكفّ ؛ لأَنَّ المراد بالحاصب الرِّيح الَّتي ترمي بالحصباء ؛ وهي صغار الحجارة ، الواحد دون ملء الكفّ [١٣٥] .

ورأى الرّازيّ ومن وافقه أَنَّ اللّه عاقبهم بعقوبةٍ ثالثة هي الصيحة [١٣٦] ، مستدلاً بقوله تعالى : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ } [الحجر : ٧٣] . وفيما ذهب إليه نظر ؛ لأَنَّ الصيحة هُنَا لا يراد بها العذاب المعهود ؛ وإنَّما هي صيحة الوجبة كما ذهب لذلك ابن عطيَّة [١٣٧] ، أو بمعنى الهلكة كما نبّه على ذلك البخاريّ والطبري ؛ فإنَّه يقال : صيح بهم إذا هلكوا [١٣٨] . وسياق الآية يدلّ على المراد بالصيحة فيها ، فإن اللّه تعالى يقول : { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ } [الحجر : ٧٣ ، ٧٤] ؛ ففسّر الصيحة بما أصابهم من الائتفاك والحصب لا بعقوبة مستقلّة من صاعقة أو صوت قاصف ؛ وبهذا يتبيّن أَنَّ ما أصابهم عقوبتان ليس غير ؛ هما الائتفاك والحصب ، والظّاهر أَنَّ الائتفاك أصل عقوبتهم بدليل

---

(١٣٤) هـذا علـى أظهر الأقوال في المراد بالسجّيل ، وعلى أن قوله (منضود) من نعت (سجّيل) لا من نعـت (الحجارة) ؛ لأَنَّ القراءة بالجرّ لا بالنّصب تبعًا للحجارة . انظر : تفسير الطبري ٩٣/١٢ ، ٩٤ ، المحـرَّر الوجيـز لابن عطيَّة ١٩٧/٣ ، ١٩٨ ، ٢١٩/٥ ، تفسير القرطبي ٨١/٩ ـــ ٨٤ ، تفسير ابن كثير ٤٥٤/٢ ، ٤٥٥ ، ٢٦٥/٤ ، أضواء البيان للشنقيطي ٣٨/٣ ، ٣٩ .

(١٣٥) انظر : تفسير القرطبي ٢٩٢/١٠ ، تفسير الجلالين بحاشية الصاوي ١٩٣/٤ .

(١٣٦) انظر : التّفسير الكبير للرازي ٢٠٣/١٩ ، تفسير ابن كثير ٥٥٥/٢ .

وقـد تكون هذه النظرة منزع من رأى من الصحابة أَنَّ اللوطي يحرق بالنار ؛ فإنَّ الصيحة عبارة عن صاعقة تحرق البدن حتَّى يعود رمادًا لابدًا بالأرض . وهناك أثر غريب عن قتادة في إحراق قوم لوط . انظر : تفسير القرطبي ٢٤٣/٧ ، ٢٤٤ ، تفسير ابن كثير ٢٥٩/٤ .

(١٣٧) انظر : المحرر الوجيز لابن عطيَّة ٣٧٠/٣ .

(١٣٨) انظر : تفسير الطبري ٤٤/١٤ ، صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري ٤١٦/٦ .

مجموع ثلاثة أمور :.

أحدهما : أَنَّ الائتفاك أصبح علمًا لمدائنهم ، فأطلق على سذوم وأعمالها من قرى قوم لوط اسم المؤتفكة والمؤتفكات ، قال تعالى : { وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى } [النّجم : ٥٣] ، وقال : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَـاتِ } [التوبة : ٧٠] ؛ أي القرى الَّتي انقلبت بأهلها جزاءً وفاقًا لما كانوا عليه من قلبٍ للفطرة في قضاء الوطر (١٣٩) .

والثّاني : أَنَّ المشهور عند أهل العلم أَنَّ قوم لوط استؤصلوا بعذاب ما عذّبت به أمّة من الأمم (١٤٠) ، وهذا يقتضي أن يكون الائتفاك أصل عقوبتهم ؛ لأَنَّ الحصب أو الرجم قد شـاركهم فيه غيرهم ، فإِنَّ اللّه أرسل على أصحاب الفيل طيرًا أبابيل ، ترميهم بحجارة أمـثال الحمـص والعدس ، لا تصيب أحدًا منهم إِلاَّ هلك ، حتَّى لم يبق منهم إِلاَّ مخبر جريح ، أو حيّ ضرير (١٤١) .

والثّالث : أَنَّ العلماء متّفقون على أَنَّ الائتفاك أصاب عامّة قوم لوط ؛ وهم من كان في مدائنهم يوم البلاء دون من كان خارجًا عنها لسفر أو غيره . وأَمَّا الحصب أو الرّجم فقد اختلفوا في عمومه على قولين : ـ

---

(١٣٩) انظر : روح المعاني للآلوسي ١١٣/١٢ .

(١٤٠) انظر : تفسير الطبري ٩٧/١٢ ، تفسير ابن كثير ٢٦٥/٤ .

(١٤١) تفسير ابن كثير ٥٤٨/٤ ـ ٥٥٤ .

ذكـر العلماء أَنَّ من أصحاب الفيل من هلك سريعًا ، ومنهم من هلك في الطّريق ، ومنهم من وصل بلده مصابًا ثُمَّ مات من إصابته ، ويقال : إِنَّ أبرهة ممَّن وصل إلى صنعاء جريحًا ، وأخبرهم بما جرى له ثُمَّ مات . وقد بقي منهم قائد الفيل وسائسه عظة وعبرة ؛ تقول عائشـة ـ رضي اللّه عنها ـ : ((لقـد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكّة أعميين ، مقعدين ، يستطعمان)) . المرجع السّابق ٥٥١/٤ ، ٥٥٢ .

أحـــدهما : أَنَّ الـــرجم خـــاص بشذاذهم ؛ وهم من كانوا خارج مدائنهم يوم الـــبلاء؛ لـــسفر أو حاجـــة ، فـــإِنَّ اللّه أرسل عليهم تلك الحجارة ؛ قطعًا لدابرهم ، واستئـــصالاً لشأفتهم ، فكانت تتبعهم في سائر البلاد ، حتَّى أهلكتهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم عين تطرف . وهذا قول قتادة ، والسدي ، ومقاتل [١٤٢] . واختاره ابن عطيَّة، وابـــن جـــزي ، وابـــن تَيْمِـــيَّة ، واستقرّ عليه الصاوي [١٤٣] . وقد ضعّفه البيضاوي وأبوالـــسعود والصاوي في قوله الأَوَّل ؛ وذلك لمخالفته دلالة ظاهر النظم القرآني على عموم الرّجم [١٤٤] . لكنه يتقوّى من جهة النّظر بأنّ من كان في المدائن هلك لما قلبت ، فلا يبقى محلّ لعقوبة الرّجم إلاَّ أن يقال : إِنَّ الرجم كان في تضاعيف القلب ، كما جنح لذلك بعض المفسِّرين [١٤٥]

والقول الثّاني : أَنَّ الرجم عمَّ حتَّى من كان في المدائن ، وجمع اللّه لهم الأمرين ؛ إهانةً وزيادة في تفظيع حالهم ، وهذا ظاهر قول مجاهد ، وقتادة في رواية ، ومحمّد بن كعب القرظي وغيرهم [١٤٦] . واختاره الطبري والقرطبي وابن كثير [١٤٧] . ويؤيّد هذا القول دلالة ظاهر القرآن على عموم الرجم وبخاصّة حين يقتصر على ذكره دون الائتفـــــــاك ؛ كما في قولـــــه تعالى : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ }

(١٤٢) انظر : تفسير الطبري ٩٧/١٢ ، تفسير القرطبي ١٣٣/١٣ ، تفسير ابن كثير ٤٥٥/٢ .

(١٤٣) انظـــر : المحـــرر الوجيز لابن عطيَّة ٤٢٦/٢ ، ٣٧٠/٣ ، التَّسهيل لابن جزي ٢٩٤/١ ، ٣٧٦ ، النبوّات لابن تَيْمِيَّة ٥١٠/١ ، حاشية الصاوي على الجلالين ٢٧٩/٢ ، ٢٢٣/٣ ، ٣٤٧ ، ١٦٣/٤

(١٤٤) انظر : تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣١٧/٤ ، تفسير أبي السعود ٢٧٠/٢ ، حاشية الصـــاوي ١٠٥/٢ .

(١٤٥) انظر : روح المعاني للآلوسي ٧٤/١٤ .

(١٤٦) انظر : تفسير الطبري ٩٨/١٢ ، ٧٩/٢٧ ، تفسير ابن كثير ٤٥٥/٢ .

(١٤٧) انظر : تفسير الطبري ١٠٦/٢٧ ، تفسير القرطبي ٢٤٧/٧ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٨٢/١ .

[الشعراء : ١٧٣] ؛ إلاَّ أَنَّ هذا القول يبقى مشكلاً من جهة النّظر ؛ ولهذا اختلف القائلون به في وقت الرّجم ؛ فقيل : إنَّهُ كان قبل القلب ، عندما رفع جبريل مدائنهم إلى السماء . ذكره القرطبي ، والمحلّي ، وأبو السعود دون عزو أَيْضًا (١٤٨) . وقيل : إنَّهُ كان في تضاعيفه . ذكره الآلوسي دون عزو (١٤٩) . وأكثر العلماء على أَنَّهُ كان بعد القلب ، وهو ما تدلّ عليه أكثر الآثار ، وتقديم الائتفاك على الرجم في الذِّكر ، وبخاصّة حين يكون العطف بحرف يقتضي الترتيب والتعقيب ، كقوله تعالى : { وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى } [النَّجم : ٥٣ ، ٥٤] ، يقول ابن كثير : ((يعني قلبها ، فأهوى بها منكّسةً ، عاليها سافلها ، وغشّاها بمطر من حجارة من سجّيل .. مرقومة ، على كلّ حجر اسم صاحبه الَّذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم ، والغائبين عنها ، من المسافرين ، والنازحين ، والشاذين منها)) (١٥٠) .

مثلة الخسف :

الخسف هو الغؤور في الأرض ، والغوص فيها ؛ يقال : خسف اللّه بفلان الأرض إذا غارت به حتَّى يغيب فيها (١٥١) . وقد حلّت مثلة الخسف بقارون (١٥٢) ؛

(١٤٨) انظر : تفسير القرطبي ٨٤/٩ ، تفسير الجلالين بحاشية الصاوي ١٩٣/٤ ، تفسير أبي السعود ٢٧٠/٢ .

(١٤٩) انظر : روح المعاني ٧٤/١٤ .

(١٥٠) البداية والنهاية ١٨٢/١ . وانظر : تفسير الطبري ٧٩/٢٧ ، تفسير القرطبي ١٢١/١٧ ، تفسير ابن كثير ٢٥٩/٤ .

(١٥١) انظر : تهذيب اللّغة للأزهري ١٠٢٩/١ ، ١٠٣٠ ، معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ١٨٠/٢ ، ١٨١ القاموس المحيط للفيروزآبادي ١٣٧/٣ .

(١٥٢) أكثر أهل العلم على أَنَّهُ كان ابن عمّ موسى عليه السلام . وقد ذكر قتادة وغيره أَنَّهُ كان من جملة من قطع البحر مع موسى عليه السلام ، ومن العلماء السبعين الَّذين اختارهم موسى لميقات ربّه ، وكان يسمّى المنور ؛ لحسن صوته بالتوراة ! ثُمَّ نافق واغترّ بكثرة ماله ؛ فأهلكه اللّه ؛ لكفره وكبره ، ويقال : إنَّ ذلك

=

لكفره أنعم اللّه عليه بقوله وعمله ، واختياله على قومه بثيابه ، ومراكبه ، وكنوزه ؛ فعاقبه اللّه بنقيض قصده ، وأذلّ كبرياءه ؛ بأن جعل مترلته أدنى المنازل [١٥٣] ؛ فقد أمر اللّه تعالى الأرض فأخذته من تحت قدميه، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قال تعالى : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ (١٥٤) الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ } [القصص : ٨١] ، وروى البخاريّ بسنده عن ابن عمر — رضي اللّه عنهما — : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلاءِ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يجلجل فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) [١٥٥] ، وفي رواية لمسلم : ((إِنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ ... الحديث بنحوه)) [١٥٦] ، وفي رواية لأحمد : ((بَيْنَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا أَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ ... الحديث)) [١٥٧] ؛ فدلّ على

=

كـان بدعـوة موسى عليه السلام . انظر : تفسير القرطبي ٣/٣١١ ، ٣١٥ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١١ .

(١٥٣) انظر : زاد المعاد لابن القيّم ١/١٤٦ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٩٨ — ٤٠٢ .

(١٥٤) ذكر مقاتل أَنَّ موسى عليه السلام لما دعا على قارون فخسف به ، قالت بنو إسرائيل : إنَّما دعا عليه ليرث ماله ؛ لأَنَّهُ كان ابن عمّه ، فخسف اللّه بداره ، وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيّام . انظر : تفسير القرطبي ١٣/٣١٨ .

(١٥٥) صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري : كتاب أحاديث الأنبـياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٦/٥١٥ . وانظـر : صحيح مسلم بشرحه للنّوويّ : كتاب اللباس والزينـة ، باب تحريم التبختر ١٤/٦٣ ٦٤ .

(١٥٦) صحيح مسلم بشرحه للنّوويّ : كتاب اللباس ، باب تحريم التبختر ١٤/٦٤ .

(١٥٧) المسند للإمام أحمد ، باقي مسند المكثرين ، ح (١٠٩٢٩) . وإسناده حسن . انظر : تفسـير ابن كثير ٣/٤٠٠ .

اتّحاد الآية والحديث في نوع العقوبة ، وفي سببها وزمنها ، فيكون متعلّقهما واحدًا في الظّاهر ؛ ولهذا قال الجوهري وابن كثير وغيرهما : المراد بالرّجل المبهم في هذه الأحاديث قارون [١٥٨] ، وإيراد البخاريّ للحديث ضمن أخبار بني إسرائيل يوحي بذلك [١٥٩] ؛ وبهذا يظهر ضعف القول بأنَّ المراد به رجل من الأكراد يقال له : (هيزن أو هينون) [١٦٠] ؛ لاختلاف زمن العقوبة وسببها ؛ فإنَّ هيزن كان في زمن الخليل ، وخسف به لسبب يختلف عمّا ذكر في الحديث ؛ إمَّا لأنَّهُ أشار بحرق الخليل كما ذكر الطبري [١٦١] ، وإمَّا لأنَّهُ ابتكر صناعة المنجنيق ؛ ليرمى به الخليل في النّار كما ذكر ابن كثير [١٦٢] .

ومعنى قوله : (يجلجل) ، أو (يتجلجل) كما وقع في أكثر روايات الصّحيح [١٦٣] ؛ أي يغوص في الأرض ، ولحركة سؤوخه فيها صوت شديد ؛ فإن الجلجلة تطلق على شدّة الصوت ؛ كصوت الرعد وما أشبهه [١٦٤] . ويحتمل أن يكون الصوت ناشئًا عن مور الأرض به بعد الخسف ؛ فإنَّ التجلجل يطلق أيضًا على التحرّك

---

(١٥٨) انظر : تفسير ابن كثير ٤٠٠/٣ ، هدي الساري لابن حجر ص٢٩٨ ، ٣٢٩ ، فتح الباري لابن حجر ٢٦٠/١٠ .

(١٥٩) انظر : شرح صحيح مسلم للنّوويّ ٦٤/١٤ ، فتح الباري لابن حجر ٢٦٠/١٠ .

(١٦٠) انظر : هدي الساري لابن حجر ص٢٩٨ ، ٣٢٩ ، فتح الباري لابن حجر ٢٦٠/١٠ .

(١٦١) انظر : تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٤٠/١ ، ٢٤١ .

(١٦٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٤٦/١٠ .

(١٦٣) انظر : صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري ٢٥٨/١٠ ، صحيح مسلم بشرحه للنّوويّ ٦٣/١٤ ، ٦٤

(١٦٤) انظر : تهذيب اللّغة للأزهري ٦٣٠/١ ، معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ٤١٨/١ ، النهاية لابن الأثير ٢٨٤/١ ، القاموس المحيط ٣٦١/٣ .

والجولان [١٦٥] ، ويؤيّده قوله تعالى : { ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ } [الملك : ١٦] ، يقول القرطبي : ((إذا خسف بإنسان دارت به الأرض ، فهو المور)) [١٦٦] . وهذا المعنى يضعف ما ذكره بعض المفسِّرين من أَنَّهُ يخسف بقارون كلّ يوم قامة ، وأَنَّهُ إذا بلغ قرار الأرض السَّابعة نفخ في الصّور [١٦٧] ؛ لأَنَّهُ في دوران مستمرّ لا يتصوّر معه وصول إلى قرار الأرض ؛ وكأنّ ذلك عذاب البرزخ في حقّه إلى قيام الساعة .

وقد ورد في الآثار والأخبار ذكر وقائع أخرى لمثلة الخسف ؛ كالخسف بقتلة يحيى بن زكريا [١٦٨] ، والخسف برجلين في عهد النَّبيِّ ﷺ ؛ أحدهما لكبره [١٦٩] ، والآخر لقولــه ــ يوم أحد ــ : ((اللّهم إن كان محمَّد على الحقّ فاخسف بي فخسف بــه)) [١٧٠] . ولكن هذه الوقائع ــ ما ثبت منها وما لم يثبت ــ كلّها وقائع فرديّة ، لا تماثل ما يعهد في المَثُلاَت من الاستئصال العام ، وقد دلَّ ظاهر القرآن على أَنَّ الخسف من عقوبات الأمم الَّتي أهلكت بعامّة ، قال تعالى : { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا }

---

(١٦٥) انظر : تهذيب اللّغة للأزهري ٦٣٠/١ .

(١٦٦) تفسير القرطبي ٢١٦/١٨ . وانظر : المفردات للراغب ص٤٧٨ .

(١٦٧) انظر : تفسير القرطبي ٣١١/١٣ ، تفسير ابن كثير ٤٠١/٣ .

(١٦٨) انظـــر : البداية والنهاية لابن كثير ٥٤/٢ ، ٥٥ . وقد ذكر ابن كثير هُنَا أَنَّهُ ورد بذلك خبر مرفوع إلاَّ أَنَّ في سياقه غرابة ، وفي رفعه نكارة .

(١٦٩) رواه أبـــو يعلى بإسناد ضعيف من طريق ابن عبَّاس مرفوعًا . انظر : مسند أبي يعلى ٥٧/١٢ ، فتح الباري لابن حجر ٢٦٠/١٠ .

(١٧٠) رواه البزّار ورجاله رجال الصّحيح . انظر : مجمع الزوائد للهيثمي ١٢٥/٦ .

[العنكبوت : ٤٠] ؛ فقرن عقوبة الخسف بعقوبات الأمم الَّتي أهلكت بعامّة ، فدلّ على أَنَّهُ مثلها ، وحكمه حكمها ؛ وبهذا يظهر عدم التناسب فيما درج عليه بعض المفسِّرين من التمثيل لمثلة الخسف هُنَا بما حلَّ بقارون ، والتّمثيل لسائر المَثُلاَت بما حلَّ بالأمم الَّتي أهلكت بعامّة ؛ كقوم عاد ولوط ، وثمود ومدين ، وقوم نوح وفرعون (١٧١)؛ وكأنهم لم يجدوا مثالاً لأمّة أهلكت بالخسف !

وقد مثّل بعضهم للخسف بما حلَّ بقوم لوط (١٧٢) ، وهو تمثيل غير مستقيم ؛ لأَنَّ ما أصاب قوم لوط كان ائتفاكًا لا خسفًا ؛ ولهذا عرفوا بأصحاب المؤتفكات ، والَّذي يبدو أَنَّ الأمّة الَّتي أخذت بالخسف هم أمّة الخليل عليه السلام ؛ فإنَّ النُّمروذ (١٧٣) وقومه لَّما كفروا بدعوة إبراهيم عليه السلام وهمّوا بقتله أشنع قتلة ، أحبط اللّه مكرهم ، وأنجى خليله من النّار ، وكان ذلك آية بيّنة على صدقه ، وصحّة دعوته ، ولكنّها لم تزد قومه إلاَّ طغيانًا وكفرًا ! فأخرجوه من بابل (١٧٤) ، فخرج من أرض الكلدانيين ؛ مهاجرًا إلى الأرض المباركة ، وأخذ اللّه قومه من تحت أرجلهم ، قال تعالى : { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ

(١٧١) انظـر : تفـسير القرطبي ٣٤٤/١٣ ، ٣٤٥ ، تفسير ابن كثير ٤١٣/٣ ، تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣٥٠/٧ .

(١٧٢) انظر : فتح الباري لابن حجر ٢٩٣/٨ .

(١٧٣) بـضم الـنون ، وبالذال المعجمة أو الدال المهملة ؛ وهو النمروذ بن كنعان ، كان أحد ملوك الدُّنيا الأربعـة ، وكانت مدينـة بابل قاعدة ملكه . وقد طغى في ملكه وتجبّر حتَّى أهلكه اللّه شرّ مهلك . انظر : تاريخ الطبري ٢٨٧/١ ، الكامل لابن الأثير ٥٣/١ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٤٨/١ .

(١٧٤) ذكر السدي أَنَّ النمروذ أخرج الخليل عليه السلام من أرضه قهرًا . انظر : تفسير الطبري ٩٦/١٤ . وهذا يضعف ما ذكره بعض المؤرّخـين من أَنَّهُ خرج باختياره ، أو بأمر اللّه له . انظر : الكامل لابن الأثير ٥٧/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٥/٢ .

حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [النحل : ٢٦] ، يقول الرّازيّ : ((في المراد بالَّذين من قبلهم قولان ؛ القول الأَوَّل : أَنَّ المراد منه نمروذ بن كنعان . والقول الثَّاني : أَنَّ هذا عام في جميع المبطلين ، الَّذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين)) (١٧٥) . والأوَّل قول أكثر المفسِّرين (١٧٦) ، وهو الأَصحّ ؛ لأَنَّ حمل النَّصّ على العموم يعني أن ذكر البنيان في الآية مجرّد مثل مضروب للاستئصال ، وليس هناك بناء حقيقة ، كما صرّح بذلك ابن قتيبة وغيره (١٧٧) ، والمعنى : أهلكهم اللّه كما هلك من هدم مسكنه من أسفله فخرّ عليه (١٧٨) ؛ ولهذا قال الطبري : ((أولى القولين بتأويل الآية قول من قال : مَعْنَى ذلك تساقطت عليهم سقوف بيوتهم ، إذ أتى أصولها وقواعدها أمر اللّه ، فائتفكت بهم منازلهم ؛ لأَنَّ ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان ، وخرّ السّقف . وتوجيه معاني كلام اللّه إلى الأشهر الأعـــرف منها أولى من توجيهـــها إلى غير ذلك ما وجد إليه سبيل)) (١٧٩) .

وإذا تقرّر أَنَّ الآية في النمروذ وقومه ، وأنَّ البنيان المذكور على ظاهره ، فإِنَّه يبقى تحديد نوع ما أصابهم من المَثُلاَت ، وإثبات إهلاكهم بعامّة .

أمَّا ما أصاب بنيانهم في أصوله حتَّى خرّ عليهم السقف من فوقهم فقد كان

(١٧٥) التّفسير الكبير ١٩/٢٠ ، ٢٠ [بتصرّف] .

(١٧٦) انظـــر : تفسير الطبري ٩٦/١٤ ـــ ٩٩ ، زاد المسير لابن الجوزي ٤٣٩/٤ ، ٤٤١ ، فتح الباري لابن حجر ٥٣٠/١٠ ، الدر المنثور للسيوطي ١١٧/٤ ، أضواء البيان للشنقيطي ٧٠٧/٥ .

(١٧٧) انظـــر : تفـــسير الطبري ٩٧/١٤ ، زاد المسير لابن الجوزي ٤٤١/٤ ، تفسير الرّازيّ ٢٠/٢٠ ، حاشية الصاوي على الجلالين ٣٨٣/٢ .

(١٧٨) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٤٤١/٤ .

(١٧٩) تفسير الطبري ٩٨/١٤ .

خسفًا في الأرض من تحتهم ، روى أبو نعيم بسنده عن حجر بن عنبس قال : (خرجنا مع عليّ إلى الحروريّة ، فلمّا جاوزنا سورا ، وقع بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أمسيت ، الصَّلاة ! فأبى أن يكلّم أحدًا ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، أليس قد أمسيت ؟ قال : بلى ، ولكني لا أصلّي في أرض خسف اللّه بها) (١٨٠) ؛ فنصّ على أَنَّ ما أصاب بنيان أهل بابل كان خسفًا في الأرض من تحتهم ، ويدلّ لصحّة مقالته أَنَّ اللّه وصفهم في الآية بالمكر، والمكر من أسباب الخسف ، كما قال تعالى : { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [النحل : ٤٥] ؛ فيكون عقابهم بالخسف مطرّدًا على سنّة اللّه في الماكرين .

وما وقع في كلام بعض أهل العلم من التعبير عمَّا أصابــهـــم بالائتفـــاك

(١٨٠) نقلاً عن التمهيد . قال ابن عبد البر : حسن الإسناد . انظر : التمهيد ٢٢٤/٥ . وقد رواه البخاريّ تعلــيقًا ، وحـــسّن ابن حجر إسناده . انظر : صحيح البخاريّ بشرحه فتح الباري ٥٣٠/١ ، تغليق التَّعلــيق لابـــن حجر ٢٣١/٢ . وقد ورد في بعض الروايات رفع النَّهي عن الصَّلاة في أرض بابل ، ولكـــن إسنادها لا تقوم به حجّة . انظر : التمهيد لابن عبد البر ٢٢٣/٥ ، ٢٢٤ ، جامع الأصول لابن الأثير ٤٧٥/٥ ، فتح الباري لابن حجر ٥٣٠/١ . وقد عقد البخاريّ بابًا في الصَّلاة في مواضع الخسف والعذاب ، وذكر فيه ما يدلّ على ترك الصَّلاة فيها ، كترك النَّبيِّ ﷺ الصَّلاة في وادي الحجر ، وكصنع عليّ في خسف بابل ، وقد وافقه على ذلك بعض أهل العلم ، ورأوا أَنَّ هذه البقاع مستثناة من عموم قول النَّبيِّ ﷺ : ((جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)) . إلاَّ أَنَّ ابن عبد البر ومن وافقه أنكروا جواز تخـــصيص الحـــديث ؛ لأَنَّ عموم الفضيلة لا يجوز عليه التخصيص ، ولا النسخ ، ولا التبديل ، ولا النقـــصان ، فـــيكون كلّ ما خالفه منسوخًا بما في ذلك أدلّة ترك الصَّلاة في مواضع العذاب . انظر : التمهيد لابن عبد البر ٢١٧/٥ ــ ٢٣٥ ، تفسير القرطبي ٤٧/١٠ ــ ٥٣ ، فتح الباري ٥٣٠/١ ، نيل الأوطار للشوكاني ١٣٩/٢ .

أو الزلزلة (١٨١) فإنَّه راجع إلى القول بالخسف ؛ لأَنَّ انقلاب منازلهم ناشئ عن الخسف ، وما حلّ بهم من الخسف قد يكون ناشئًا عن زلزالٍ ؛ فإنَّ الزلزال إذا اشتدّت قوّته أدّى ذلك إلى انزلاقات صخريّةٍ ، وانهيارات أرضيّة تذهب بمن على وجه الأرض المنكوبة (١٨٢) .

وأَمَّا إثبات إهلاك أهل بابل بعامّة فإنَّ دليله من ذات النَّصّ ومن خارجه ؛ قال تعالى : { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل : ٢٦] ؛ فأخبر عمَّا أصابهم بصيغة مؤكّدة ، تدلّ على أَنَّ الخراب عمّ أبنيتهم ، فتهدّمت ، وماتوا تحتها (١٨٣). وقال تعالى : { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج: ٤٢ ــ ٤٤]؛ فذكرهم ضمن الأمم الَّتي أخذت بالمُثلات واستؤصلت بعامّة (١٨٤)

---

(١٨١) انظر : تفسير الطبري ٩٧/١٤ ، ٩٨ ، تفسير الرّازيّ ٢٠/٢٠ ، تفسير الخازن ٨٦/٤ ، الدر المنثور للسيوطي ١١٧/٤ .

(١٨٢) فيما ذكر من نصوص دلالة على خطأ ما ذكره بعض الباحثين من إهلاكهم بتسليط الأعداء ؛ اعتمادًا على ما اكتشف من نصوص سومرية تصوّر نهاية بابل . انظر : أطلس تاريخ الأنبياء للمغلوث ص ١٠٤ ؛ لأَنَّ ما ذكره يحتمل أن يكون تصويرًا لما حلّ ببابل قبل الخليل أو بعده بزمن ، أو يكون تصويرًا لما حلّ بمملكة بابل بعد الخسف بقاعدتها ، فإنَّ ملك النمروذ كان عريضًا ، ولم يكن قاصرًا على مدينة بابل وحدها .

(١٨٣) انظر : تفسير الرّازيّ ٢٠/٢٠ ، تفسير الخازن ٨٧/٤ .

(١٨٤) انظر : أضواء البيان للشنقيطي ٧٠٤/٥ ــ ٧٠٩ .

وفي إثبات إهلاكهم بعامّة دلالة على قصور ما ذكره بعض المؤرّخين ؛ فإنَّهم لم يذكروا شيئًا عمّا أصابهم من الهلاك العام ؛ وإنَّما ذكروا طمع النمروذ في الافتداء من الإيمان ، وعزم الخليل على فراقه، ثُمَّ خروجه هو ومن آمن معه من أرض الكلدانيين ببابل إلى حرّان ، ثُمَّ هجرته إلى الأرض المقدّسة . انظر : الكامل لابن الأثير ٥٧/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٥/٢ .

=

مثلة المسخ:

المسخ عبارة عن تبديل الخلق إلى خلق آخر قبيح (١٨٥) ؛ كما أصاب أصحاب

=

وكـذلك فإنَّ إثبات إهلاكهم بعامّةٍ يدلّ على ضعف ما يذكره بعض المفسِّرين عن النمروذ وقومه ؛ كخبر الأنسر الأربعة ، وبناء الصرح الهائل ، وتسليط البعوضة على النمروذ حتَّى أهلكته ؛ لأَنَّ تحقق ذلك يستغرق وقتًا يمتدّ إلى ما بعد وفاة الخليل بمدّة طويلة ؛ فإنَّ أقصى ما قيل في عمر الخليل أَنَّهُ عاش مائتي سنة ، ومفاد هذه الأخبار أَنَّ النمروذ ربّى أفراخ الأنسر حتَّى كبرن ، ثُمَّ بنى صرحًا هائلاً ، ثُمَّ سلّطت عليه بعوضة فظلّ معذّبًا بها أربعمائة سنة ! أي أَنَّهُ مات بعد الخليل بدهر ، وهذا ينافي سنّة اللّه في معاجلـة أعدائه بالعقوبة إذا أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم . انظر : تفسير الطبري ٩٧/١٤ ، البداية والنهايـة لابن كثير ١٧٤/١ ، ١٧٥ ، تفسير ابن كثير ٥٦٦/٢ ، الدر المنثور للسيوطي ١١٧/٤ .

ومّما يدلّ على ضعف هذه الأخبار مع ما ذكر تناقضها في ذاتها ، ومخالفتها للنّصّ والعقل ؛ فما فيها من الإخبار عن إهلاكهم بعد سقوط الصرح يناقض بقاء النمروذ بين قومه معذّبًا ، وأَنَّهُم ربما ضربوا رأسـه بالمطـارق من شدّة ما يجد من الألم ، وما ذكروه من إرسال ريح على الصرح فألقت رأسه في البحر ، وخرّ عليهم الباقي فهلكوا تحته يخالف دلالة الآية على أَنَّ ما أصابهم كان من جهة القواعد لا مـن جهة العلوّ . وأيضًا فإنَّه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف ، وأن يغرّر أحد بنفسه في مثل هـذا كما قال ابن عطيّة ، وكذلك فإنَّ تبلبل ألسنة النَّاس بعد سقوط الصرح وحدوث اللغات كلام غـير معقول ؛ لأَنَّهم إن أرادوا أهل بابل خاصّة فقد أهلكهم الصرح ، وإن أرادوا سائر النَّاس فمعنى ذلك أَنَّ النَّاس جميعًا سمعوا وجبة الصرح وهذا لم يقل به أحد حتَّى في وجبة المؤتفكات ! ثُمَّ إنَّ تبلبل الألـسنة يـوجب الاخـتلاط لا إحداث لغات جديدة ، مع أَنَّهُ من المعلوم أَنَّ اختلاف اللغات كان موجودًا قبل سقوط الصرح المزعوم ؛ فإنَّ قبائل العرب الأولى كطسم وجديس كانوا يتكلّمون العربيّة لا الـسريانية . انظـر : تفسير البغوي ٦٦/٣ ، المحرّر الوجيز لابن عطيَّة ٣٤٦/٣ ، زاد المسير لابن الجوزي ٤٣٩/٤ ، تفسير الخازن ٨٦/٤ ، روح المعاني للآلوسي ١٢٥/١٤ .

(١٨٥) انظـر : تهذيب اللّغة للأزهري ٣٣٩٢/٤ ، معجم مقاييس اللّغة لابن فارس ٣٢٣/٥ ، النهايـة لابن الأثير ٣٢٩/٤ ، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢٧٩/١ .

=

السبت من بني إسرائيل [١٨٦] ؛ فإنَّ اللّه لما حرّم عليهم صيد الحيتان يوم السبت ، احتالوا على شرع اللّه ؛ فكانوا يحفرون الحياض ، وينصبون الشباك قبل يوم السبت ، فإذا سبتوا ، وأقبلت الحيتان شرّعًا انحبست في مصايدهم حتَّى إذا انقضى وقت التَّحريم أخذوها من الحياض والشباك ، واستمرّوا على ذلك مستعلنين بالمعصية ، معرضين عن النصيحة ، فعاقبهم اللّه بتبديل خلقهم إلى خلق حيواني ؛ جزاء تبديلهم دين اللّه ، واستحلال محارمه بأدنى الحيل [١٨٧] ، قال تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة : ٦٥] ، وقال : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ } [المائدة : ٦٠] ؛ والآيتان كلتاهما إخبار عمَّا حلَّ ببني إسرائيل من مثلة المسخ ، إلاَّ أَنَّ الآية الأولى خاصّة بأصحاب السبت ، والثانية محتملة لما هو أعمّ ؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أَنَّ أحد المسخين كان في أصحاب السبت ، والآخر في كفّار المائدة ،

=

والمسخ في الإسلام عقوبة قد تكون في الدُّنيا ، وقد تكون في الآخرة ، وهي تنال الرّوح والبدن معًا ؛ خلافًا لما ذهبت إليه طائفة من التناسخيّة من تخصيصه بانتقال الرّوح المفارقة إلى بدن حيواني تنعم فيه أو تعذب ؛ ولهذا فإنَّ الجزاء عندهم إنَّما يكون في الدُّنيا ليس غير . انظر : شرح المقاصد للتفتازاني ٣٢٥/٣ .

(١٨٦) اختلف العلماء في تعيين أصحاب السبت على أقوال أشهرها أنَّهُم أهل أيلة ؛ وهو قول ابن عبَّاس وابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم . انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٢٧٦/٣ ، تفسير القرطبي ٣٠٥/٧ ، النهاية لابن الأثير ١٢١/٢ .

وأيلة ميناء بحري شمال خليج العقبة . وقد ذكر بعض المفسِّرين أَنَّ الطائفة الَّتي أصابها المسخ من أهل أيلة كانوا نحوًا من سبعين ألفًا . انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٩٥/١ ، تفسير القرطبي ٣٠٧/٧ ، أطلس تاريخ الأنبياء للمغلوث ص٢١٨ .

(١٨٧) انظر : تفسير الطبري ١٣٦/٧ ، زاد المسير لابن الجوزي ٣٧٨/٢ ، روح المعاني للآلوسي ١٧٥/٦ .

فالمعتدون في السبت مسخوا قردة ، وكفّار المائدة مسخوا خنازير [١٨٨] . وذهب ابن عبّاس وقتادة إلى أَنَّ المسخين كانا في أصحاب السبت ؛ فشبابهم صاروا قردة ، وشيوخهم خنازير [١٨٩] .

ولا شكّ أَنَّ المسخ قد وقع في بني إسرائيل حقيقةً خلافًا لمجاهد [١٩٠] ، أما التعيين فمقطوع به في حقّ أصحاب السبت دون غيرهم ؛ لأَنَّ قوله تعالى : { فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } [المائدة : ١١٥] ؛ ليس نصًّا في وقوع المسخ في كفّار المائدة ؛ فالوعيد فيها مرتّب على حصول الكفر بعد نزول المائدة ، وقد قال الحسن ومجاهد : إنّهم استعفوا من طلبها ؛ خوفًا من عقوبتها فلم

---

(١٨٨) انظر : تفسير الطبري ١٠١/٩ ، زاد المسير لابن الجوزي ٩٥/١ ، ٣٨٧/٢ ، تفسير القرطبي ٤٤٠/١ ، ٣٠٦/٧ ، تفسير ابن كثير ١٠٥/١ ، البداية والنهاية ١٢٣/٢ .

(١٨٩) ظاهر كلام أئمة السّلف أَنَّ المسخ كان بسبب تبديل دين اللّه ، والكفر بعد نزول المائدة ، إلاَّ أَنَّهُ قد أثر عن مجاهد وقتادة وأبي مالك أَنَّهُ كان بسبب لعنٍ من بعض أنبيائهم ؛ فلعنوا على لسان داود فصاروا قردة ، ولعنوا على لسان عيسى فصاروا خنازير . وقد كان أصحاب السبت في زمن داود عليه السلام فيمكن أن يرجع كلامهم إلى قول الجمهور ؛ أي أَنَّهُم بدّلوا ، وكفروا ، ثُمَّ لعنوا على لسان من كان من أنبيائهم في زمانهم ، ثُمَّ مسخوا . ويحتمل أَنَّهُم أرادوا غير أصحاب السبت وكفّار المائدة كما قال ابن جريج وغيره ، فقد ذكروا أَنَّ المسخ تكرّر في بني إسرائيل فأصاب آحادًا منهم وجماعات ؛ لأسباب مختلفة ؛ كالاستهزاء ببعض أنبيائهم ، أو الافتراء عليه ، أو الاستجماع على الكفر والاسترسال في قتل الدعاة . واللّه أعلم بحقيقة الحال . انظر : تفسير الطبري ٢٩٣/٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، زاد المسير لابن الجوزي ٩٥/١ ، تفسير القرطبي ٣٠٦/٧ .

(١٩٠) ثبت عن مجاهد أَنَّ ما أصاب أصحاب السبت كان مسخًا خُلُقيًّا لا خَلْقيًّا ؛ فأصاب المسخ قلوبهم لا صورهم . وقد تفرّد مجاهد بهذا القول ، واستبعده العلماء ؛ لما فيه من مخالفة الظّاهر بلا دليل . انظر : زاد المسير ٩٥/١ ، تفسير القرطبي ٤٤٣/١ ، البداية والنهاية ١٢٣/٢ ، تفسير ابن كثير ١٠٥/١ ، ١٠٦ .

تنـــزل [١٩١] . يقول ابن كثير : ((قد يتقوّى ذلك بأنَّ خبر المائدة لا يعرفه النصارى ، وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوافر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا ، ولا أقلّ من الآحاد)) [١٩٢] .

وعلى تقدير نزول المائدة كما هو مذهب الجمهور فإنَّ وعيد كفّار المائدة محتمل في حقيقته وفي وقت إنفاذه ؛ فيجوز أن يراد به المسخ أو غيره من العقوبات ، ويجوز أن يكون معجّلاً في الدُّنيا ، أو مؤجّلاً في الآخرة [١٩٣] . وأَمَّا ما رواه الترمذي بسنده عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ مرفوعًا : ((أُنْزِلَتِ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا ، وَأُمِرُوا أَنْ لا يَخُونُوا وَلا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ ، فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا لِغَدٍ ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ)) [١٩٤] فإنَّ الأرجح أَنَّهُ موقوف ، ولم يثبت مرفوعًا عن النَّبيِّ ﷺ ، يقول الترمذي : ((هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، قَدْ رَوَاهُ أَبُو عَاصِمٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ خِلاسٍ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ مَوْقُوفًا ، وَلا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ ابْنِ قَزَعَةَ . قال الترمذي : حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ حَبِيبٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ نَحْوَهُ ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ . وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بْنِ قَزَعَةَ ، وَلا نَعْلَمُ لِلْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ أَصْلاً)) [١٩٥] .

والمسخ ليس مجرّد تبديل للخلقة ، وإنَّما هو مقدّمة مخزية لقطع الدابر ،

---

(١٩١) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٢/٢٦١ ، ٢٦٢ ، تفسير ابن كثير ٢/١١٩ .

(١٩٢) تفسير ابن كثير ٢/١١٩ .

(١٩٣) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٢/٤٥٩ ، ٤٦٢ .

(١٩٤) سنن الترمذي بشرحه تحفة الأحوذي : كتاب التّفسير ، سورة المائدة ٨/٤٣٣ .

(١٩٥) المرجع السّابق ٨/٤٣٤ .

والاستئصال من الأرض ؛ لأَنَّ اللّه لم يمسخ قومًا فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة ولا قرارًا فوق ثلاثة أيّام ، روى مسلم بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ مرفوعًا : ((إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلاَ عَقِبًا)) (١٩٦) ، وفي رواية : ((فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّه ! الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ هِيَ مِمَّا مُسِخَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا ، أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا ، فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً ، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ)) (١٩٧) ؛ وفي التعبير عن المسخ بالإهلاك دلالة على أَنَّهُ تبديل يتبعه استئصال لا مجرد تبديل تستمرّ معه الحياة ؛ ولهذا قال ابن عبَّاس ــ رضي اللّه عنهما ــ : ((لم يعش مسخ قطّ فوق ثلاثة أيّام ، ولم يأكل ، ولم يشرب ، ولم ينسل)) (١٩٨) ، وقال : ((إِنَّما كان الَّذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردةً فُواقًا ثُمَّ هلكوا ، ما كانوا للمسخ نسل)) (١٩٩)، يقول الجوهري : ((الفُواق والفَوَاق ما بين الحلبتين من الوقت ؛ لأَنَّها تحلب ثُمَّ تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدرّ ثُمَّ تحلب)) (٢٠٠). وكأنّ مراده بإطلاق الفواق المبالغة في التعبير عن قصر المدّة الَّتي عاشوها بعد المسخ لا حقيقة التحديد ، ويحتمل أَنَّهُ أراد التحديد ؛ فيكون المراد بكلامه الأَوَّل بيان أطول مدّة يعيشها الممسوخ ، وبالثاني بيان المدّة الَّتي عاشها أصحاب السبت خاصّة . والأَوَّل أظهر ؛ لأَنَّ ما ورد عن ابن عبَّاس وغيره في تفصيل

---

(١٩٦) صحيح مسلم بشرحه للنّوويّ : كتاب القدر ، باب بيان أَنَّ الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص ١٦ /٢١٤ .

(١٩٧) المرجع السّابق .

(١٩٨) تفسير القرطبي ٤٤١/١ ، تفسير ابن كثير ١٠٥/١ . وانظر : زاد المسير لابن الجوزي ٩٥/١ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٢٣/٢ .

(١٩٩) تفسير ابن كثير ١٠٥/١ .

(٢٠٠) الصحاح ١٥٤٦/٤ ، وانظر : المفردات للراغب ص٣٨٨ .

خبرهم [٢٠١] يدلّ على أنَّهُم عاشوا بعد المسخ مدّةً تزيد عن الفواق بكثير .

وقد رأى ابن قتيبة أَنَّ القردة والخنازير المعروفة من نسل هؤلاء الممسوخين ، وجوّز ذلك الزّجَّاج وابن العربيّ [٢٠٢]؛ استدلالاً بقوله: {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ} [المائدة : ٦٠] ؛ لأَنَّ دخول الألف واللام يدلّ على المعرفة ، وعلى أنَّها الكائنات الَّتي تعاين ، ولو كان أراد شيئًا انقرض ومضى لقال: وجعل منهم قردة وخنازير [٢٠٣] . واستدلّوا أيضًا بما رواه مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : ((الْفَأْرَةُ مَسْخٌ ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ يُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا لَبَنُ الْغَنَمِ فَتَشْرَبُهُ ، وَيُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا لَبَنُ الإِبِلِ فَلا تَذُوقُهُ . فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ : أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ: أَفَأُنْزِلَتْ عَلَيَّ التَّوْرَاةُ ؟!)) [٢٠٤] وهذا القول غير مسلّم ؛ لأَنَّ حديث ابن مسعود صحيح صريح في محلّ النـــزاع ، وما فيه من الجزم بعدم صلة أولئك الممسوخين بالقردة والخنازير المعروفة يدلّ على أَنَّ ما قاله في صلة الفأرة والضبّ بهم كان توقّعًا وخشيةً قبل أن يوحى إليه أَنَّ اللّه لم يجعل للمسخ نسلاً ولا قرارًا في الدُّنيا [٢٠٥] ؛ ولهذا وقع في بعض الروايات التّصريح بما يفيد ذلك التوقع ؛ روى مسلم بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعًا : ((فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، لا يُدْرَى مَا فَعَلَتْ ، وَلا أُرَاهَا إِلاَّ الْفَأْرَ)) [٢٠٦] ، وروى أحمد بسنده عن عبد الرَّحمن بن

---

(٢٠١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٢٢/٢ ، ١٢٣ .

(٢٠٢) انظر : زاد المسير لابن الجوزي ٣٨٧/٢ ، تفسير القرطبي ٤٤٠/١ .

(٢٠٣) انظر : زاد المسير ٣٨٧/٢ ، ٣٨٨ .

(٢٠٤) صحيح مسلم بشرحه للنّوويّ : كتاب الزهد والرقائق ، باب في أحاديث متفرّقة ١٢٤/١٨ .

(٢٠٥) انظـــر : شرح معاني الآثار لأبي جعفر الطحاوي ١٩٩/٤ ، التمهيد لابن عبد البر ٦٧/١٧ ـــ ٧١ ، فتح الباري لابن حجر ٣٥٣/٦ ، ٦٦٦/٩ .

(٢٠٦) صحيح مسلم بشرحه للنّوويّ : كتاب الزهد والرقائق ، باب في أحاديث متفرّقة ١٢٤/١٨ .

حسنة قال : ((كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَنَزَلْنَا أَرْضًا كَثِيرَةَ الضِّبَابِ ، فَأَصَبْنَا مِنْهَا وَذَبَحْنَا ، فَبَيْنَا الْقُدُورُ تَغْلِي بِهَا إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ أُمَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فُقِدَتْ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ هِيَ ، فَأَكْفِئُوهَا ، فَأَكْفَأْنَاهَا)) (٢٠٧) .

الخاتمــــة

الحمد للّه وحده ، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيّ بعده ، وبعد : ــــ

فقد انتهيت من دراستي لأبعاد دليل المَثُلاَت إلى النّتائج التالية : ــــ

١– المَثُلة لغةً اسم للعقوبة المنكلة لا لمطلق العقوبة ، والغالب أنّها تكون باستئصال بعض الأعــضاء ، وهـــي منتزعة من المَثَل والمِثْل معًا ؛ فهي متماثلة في النكال ، والأخذة الفذة بالعقوبة ؛ ولهذا يضرب بها وبمن حلّت به المثل في الشدّة .

٢ – المَثُلة اصطلاحًا هي العقوبة المنكلة المتفرّدة عن النظائر ؛ فيعتبر في حقيقتها التّنكيل والزجر من جهة ، والخروج عن معهود الخلق في العقوبة من جهة ثانية .

٣– اختلاف العلماء في تحديد المَثُلاَت اصطلاحًا اختلاف تنوّع لا تضاد ؛ فكلّ قول من أقـــوالهم ينبئ عن بعد للكلمة ويوضّح جانبًا من معناها ؛ وهي تدلّ بمجموعها على ستّة معان : ــــ

أ– الخروج عن المعهود في عقوبة الخلق ، وهذه خاصّة براهين النبوّة ؛ ولهذا كانت المَثُلاَت من أعظم براهين صدق الرّسل .

---

(٢٠٧) المسند ، مسند الشاميين ح (١٧٠٩٠) . والحديث إسناده صحيح . انظر : تخريج مسند الشاميين للدّكتور عليّ محمَّد جماز ٧٩١/٢ .

ب- مشابهة المَثُلاَت لأسبابها ؛ فكلّ مثلة تشابه جريرة من حلّت بساحته ، وكذلك ما أوعدت به فئام من أمّة محمَّد ﷺ ، فإنَّها تناسب آثامهم ، وما باتوا عليه من الجرائم .

جـ - شهرة المَثُلاَت ووضوحها ؛ ولهذا كانت برهانًا على أعظم أمور الدِّين وأشهرها ؛ وهي معرفة الربّ ، وتوحيده ، وصدق رسله .

د - استئصال المعذّبين بعامّة . وهذا في الأعمّ الأغلب ؛ لأَنَّ المَثُلة قد تحلّ بفرد بعينه، وقد تكون بغير الاستئصال .

هـ - الدلالة على صدق الرّسل دلالةً تلائم الفطرة ملاءمة المثل وأعظم ، وتتميّز عنه بالاستمرار ، وعموم الدلالة ، والدلالة على المطالب الدينية الكلية دلالة عقلية ونقلية معًا .

و - اطراد المَثُلة في حقّ المعذّبين ومن يشبههم من المجرمين ؛ فالمعذّبون في بلاء متتابع إلى يوم القيامة ، ومن أشبههم في الجرائم لقي مثل جزائهم ؛ لأَنَّ سنّة اللّه في المكذِّبين مطّردة إلى يوم القيامة . وهذا لا يشكل على انقطاع المَثُلاَت بنزول التّوراة ، أو على عصمة المسلمين من المَثُلاَت ؛ لأَنَّ ما انقطع إنَّما هو المَثُلاَت العامّة دون الخاصّة ؛ فلا تزال المَثُلاَت الخاصّة بفئام أو طوائف تحلّ بالمجرمين اللاحقين إلى يوم القيامة .

٤ - معرفة أنواع المَثُلاَت تفصيلاً أعظم وأتمّ من التّحديد النّظري المجرّد في بيان مَعْنَى المَثُلاَت، وتصوّر أبعاده ؛ ولهذا اكتفى علماء السّلف في بيان المَثُلاَت بذكر أنواعها ، وهذا يقتضي بالضرورة إبراز أبعاد المَثُلاَت من خلال عرض أنواعها ؛ كمثلة الغرق ، والرِّيح ، والصّيحة ، والائتفاك ، والخسف ، والمسخ .

٥ - ضرورة الجمع بين نصوص المَثُلاَت ، لمعرفة صورة المَثُلة كما وقعت . وهذا يستلزم إمعان النّظر في اختلاف التّعبير عن العقوبة مراعاةً للسّياق حتَّى لا يتوهّم تعدّد في العقوبة وهي واحدة في الواقع ونفس الأمر .

٦ – أَنَّ الكفـــر يزيد ويعظم بالمعصية ؛ ولهذا كانت مثلة قوم لوط أعظم المَثُلاَت ؛ لما اجتمع فيهم من الكفر وقبيح الخلال ؛ وبخاصّة ما ابتدعوه من إتيان الرّجال علانيةً دون حياء من فاعل أو نكير من ناظر !

٧ – أهمـــيّة إبراز المضامين الإيمانيّة لدليل المَثُلاَت ، لما تحدثه في قلوب العباد من شدّة الخوف ، وقـــوّة الـــرّجاء ؛ فلا يأمن فاجر من مكر اللّه وبأسه ، ولا يقنط مؤمن من روح اللّه ونصره . واللّه أعلم ، وصلّى اللّه على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المصادروالمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدِّين السيوطي . مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الرَّابعة ١٣٩٨ هـ

٢- إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) ، لأبي السّعود بن محمَّد العمادي دار الفكر .

٣- أساس البلاغة ، لمحمود بن عمر الزّمخشري ، تحقيق / عبد الرّحيم محمود . دار المعرفة ببيروت ، طبعة ١٤٠٢ هـ .

٤- أضواء البيان ، لمحمّد بن محمَّد الشنقيطي . عالم الكتب ، بيروت .

٥- أطلس تاريخ الأنبياء ، لسامي بن عبد اللّه المغلوث . مكتبة العبيكان ، الطبعة الرَّابعة ١٤٢٤ هـ .

٦- إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان ، للإمام ابن القيّم . دار الكتاب العربيّ ببيروت ، الطّبعة الأولى ١٤١٧ هـ .

٧- بدائع الفوائد ، للإمام ابن القيّم . دار الكتاب العربيّ ببيروت ، إدارة الطّباعة المنيريّة .

٨- البداية والنّهاية ، لأبي الفداء ابن كثير . مكتبة المعارف ، بيروت ، الطّبعة السّابعة ، ١٤٠٨ هـ .

٩- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدِّين محمَّد بن عبد اللّه الزركشي ، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثّالثة ١٤٠٠ هـ ، دار الفكر بلبنان .

١٠- تاريخ ابن خلدون ، لعبد الرَّحمن بن محمَّد بن خلدون . منشورات الأعلمي ، بيروت ، طبعة ١٣٩١ هـ .

١١- تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر الطبري ، تحقيق / محمَّد أبو الفضل إبراهيم . دار سويدان ، بيروت .

١٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، للحافظ محمَّد المباركفوري . المكتبة السلفية بالمدينة ، مطبعة المدني ، الطبعة الثّانية ١٣٨٣ هـ .

١٣- تخريج مسند الشاميين من مسند الإمام أحمد ، للدكتور / عليّ محمَّد جماز . الشؤون الإسلاميّة ، قطر، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

١٤- تدريب الراوي في شرح تقريب النّواوي ، للحافظ جلال الدِّين السيوطي . ط: مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط: الثّانية ، ١٣٩٢ هـ .

١٥- التّسهيل لعلوم التتريل ، لمحمّد بن أحمد بن جزي . شركة دار الأرقم للطّباعة والنّشر ببيروت .

١٦- تغليق التعليق ، للحافظ أحمد بن عليّ بن حجر ، تحقيق / سعيد القزقي . المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ .

١٧- تفسير القرآن العظيم ، لإسماعيل بن كثير القرشي . مكتبة دار التراث بالقاهرة ، مطابع المختار الإسلامي .

١٨- التّفسير الكبير ، للفخر الرّازي . دار الكتب العلميّة ، طهران ، الطّبعة الثّانية .

١٩- تقريب التهذيب ، للحافظ ابن حجر العسقلاني . المكتبة العلميّة بالمدينة المنوّرة ، دار المعرفة ببيروت.

٢٠- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والآسانيد ، للحافظ يوسف بن عبد اللّه بن عبد البر . مطبعة فضالة ، المحمدية .

٢١- تهذيب اللّغة ، لأبي منصور محمَّد بن أحمد الأزهري ، تحقيق / رياض قاسم . دار المعرفة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

٢٢- جامع الأصول في أحاديث الرّسول ، للمبارك بن محمَّد الجزري ، تخريج عبد القادر الأرنؤوط . مكتبة الحلواني ، الطّبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ .

٢٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطّبري) ، للإمام محمَّد بن جرير الطّبري . دار الفكر ببيروت ، طبعة ١٤٠٥ هـ .

٢٤- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، لأبي عبد اللّه محمَّد بن أحمد القرطبي ، تصحيح / أحمد البردوني . الطبعة الثّانية .

٢٥- الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ، للإمام ابن تَيْمِيَّة ، تحقيق الدكتور / عليّ حسن ورفاقه . الطبعة الثّانية ١٤١٩ هـ ، دار العاصمة بالرّياض .

٢٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدّواء الشّافي ، لمحمّد بن أبي بكر بن القيّم . دار الكتب العلميّة ، بيروت .

٢٧- حاشية الشّهاب على البيضاوي ، لشهاب الدِّين أحمد بن محمَّد الخفاجي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، الطّبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ .

٢٨- الدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور ، لجلال الدِّين السّيوطي . دار المعرفة ببيروت .

٢٩- الردّ على المنطقيين ، لأبي العبّاس بن تَيْمِيَّة . الطبعة الرّابعة ١٤٠٢ هـ ، نشر إدارة ترجمان السنّة بلاهور .

٣٠- الرِّسالة التدمريّة ، لأبي العبّاس بن تَيْمِيَّة ، تحقيق الدكتور / محمَّد بن عودة السعوي . الطبعة الأولى، شركة العبيكان للطّباعة والنّشر .
٣١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدِّين محمود الآلوسي . طبعة ١٤٠٨ هـ ، دار الفكر .
٣٢- زاد المسير في علم التّفسير ، لجمال الدِّين عبد الرّحمن بن الجوزي . الطبعة الرّابعة ١٤٠٧ هـ ، المكتب الإسلامي ببيروت .
٣٣- زاد المعاد في هدي خير العباد ، للإمام محمَّد بن أبي بكر الزّرعيّ (ابن القيّم) ، تحقيق وتخريج / شعيب وعبد القادر الأرنؤوط . مؤسّسة الرِّسالة ، الطّبعة الخامسة عشر ، ١٤٠٧ هـ .
٣٤- سنن ابن ماجه . ت : محمَّد فؤاد عبدالباقي ، مطبعة الحلبي .
٣٥- شرح جوهرة التّوحيد ، لإبراهيم بن محمَّد البيجوري . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، الطّبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ .
٣٦- شرح صحيح مسلم ، للحافظ يحيى بن شرف النّووي . دار الكتب العلميّة ببيروت .
٣٧- شرح معاني الآثار ، لأبي جعفر الطحاوي ، تحقيق / مُحَمَّد زهري النجّار . الطبعة الثّانِيَة ١٤٠٧ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٣٨- شرح المقاصد ، لسعد الدِّين التفتازاني ، تعليق / عبد الرّحمن عميرة . عالم الكتب ، بيروت ، الطّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ .
٣٩- الصّحاح ، لإسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تحقيق / أحمد عطّار . الطّبعة الثّانية ١٤٠٢ هـ .
٤٠- صحيح الجامع الصّغير وزيادته ، لمحمّد ناصر الدِّين الألباني . الطبعة الثّانية ١٤٠٦ هـ ، المكتب الإسلاميّ .
٤١- صفة صلاة النَّبيِّ ﷺ ، لمحمد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثامنة .
٤٢- صفوة البيان لمعاني القرآن ، لحسنين مخلوف . دار الكتاب العربيّ بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ
٤٣- طريق الهجرتين وباب السعادتين ، للإمام ابن القيّم ، تحقيق / محبّ الدِّين الخطيب ، المكتبة السلفية ، الطبعة الثّالثة ١٤٠٧ هـ .
٤٤- طريق الوصول إلى العلم المأمول ، لعبد الرَّحمن بن ناصر السعدي ، المؤسسة السعيدية بالرِّياض .
٤٥- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ، دار ابن القيّم بالدمّام ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ
٤٦- عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيّب محمَّد شمس الحقّ آبادي . المكتبة السلفية ، الطبعة الثّانية ١٣٨٨ هـ .
٤٧- الفتاوى الكبرى ، لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة ، تقديم حسنين مخلوف . دار المعرفة بيروت .

٤٨- فــتح الــباري بشرح صحيح البخاريّ مع مقدّمته (هدي الساري) ، للحافظ / أحمد بن عليّ بن حجر ، ترقيم / محمَّد فؤاد عبد الباقي ، وتحقيق الشّيخ / عبد العزيز بن باز . دار المعرفة ببيروت .

٤٩- فتح المغيث شرح ألفيّة الحديث ، لشمس الدِّين السخاوي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .

٥٠- القاموس المحيط ، لمحمّد بن يعقوب الفيروزآبادي . المؤسسة العربيّة للطّباعة والنّشر .

٥١- الكامل في التّاريخ ، لعلي بن الأثير . دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، الطّبعة الثّانية ، ١٣٨٧ هـ .

٥٢- كتاب النبوّات ، للإمام تقيّ الدِّين ابن تَيْمِيَّة ، تحقيق الدّكتور / عبد العزيز الطويان . أضواء السّلف الطّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ .

٥٣- كــشّاف اصــطلاحات الفــنون ، لمحمّد بن عليّ التهانوي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، الطّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ .

٥٤- الكــشّاف عــن حقائـــق التنــزيل وعيون الأقاويل ، لمحمود بن عمر الزّمخشريّ . الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ ، دار الفكر للطّباعة والنّشر .

٥٥- الكــشف عــن مناهج الأدلّة ، لمحمّد بن أحمد بن رشد [ضمن فلسفة ابن رشد] . الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ، دار الآفاق ببيروت .

٥٦- لــباب الــتأويل في معــاني التتريل (تفســير الخازن) ، لعليّ بن محمَّد بن إبراهيم الخازن . طبعة ١٣٩٩ هـ ، دار الفكر .

٥٧- لسان العرب ، لمحمّد بن مكرم بن منظور . ط: دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت .

٥٨- مجمع الزوائد ، للحافظ عليّ بن أبي بكر الهيثميّ . مؤسّسة المعارف ، بيروت ، طبعة ١٤٠٦ هـ .

٥٩- مجمــوع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة ، جمع وترتيب عبد الرّحمن بن محمَّد بن قاسم . مطبعة المساحة العسكريّة بالقاهرة ١٤٠٤ هـ .

٦٠- محاســن الــتأويل (تفسير القاسمي) ، لمحمّد جمال الدِّين القاسمي ، تعليق / محمَّد فؤاد عبد الباقي . الطبعة الثّانية ١٣٩٨ هـ ، دار الفكر ببيروت .

٦١- المحــرّر الوجيز (تفسير ابن عطيّة) ، للقاضي أبي محمَّد عبد الحقّ بن غالب بن عطيّة ، تحقيــق / عبد السّلام عبد الشافي . الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ، دار الكتب العلميّة ببيروت .

٦٢- مدارج السّالكين ، للإمام ابن قيّم الجوزيّة ، تحقيق محمَّد الفقي . دار الرشاد بالمغرب .

٦٣- مدارك التّتريل وحقائق التأويل (تفسير النّسفي) ، لأبي البركات عبد اللّه النّسفي . دار الفكر .

٦٤- معــالم الــتّتريل (تفسير البغوي) ، لحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق خالد العك وزميله . الطبعة الثّانية ١٤٠٧ هـ ، دار المعرفة .

٦٥- معـاني القرآن الكريم ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق / محمَّد الصّابوني . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، مركز البحث العلميّ بجامعة أمّ القرى ، مطابع النّدوة .

٦٦- معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللّغة العربيّة . الطّبعة الثّانية ، ١٣٩٠ هـ .

٦٧- معجم مقاييس اللّغة ، لأحمد بن فارس ، تحقيق عبد السّلام هارون . طبعة ١٣٩٩ هـ ، دار الفكر

٦٨- المعجم الوسيط ، لإبراهيم مصطفى وزملائه . الطّبعة الثّانية .

٦٩- المفـردات في غـريب القـرآن ، للـراغب الأصـفهاني ، تحقـيق محمَّـد سـيّد كيلاني . دار المعرفة ، بيروت .

٧٠- الـنّهاية في غـريب الحديث والأثر ، للمبارك بن محمَّد الجزري ، تحقيق / طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي . مكتبة الباز بمكّة .